الدكتور إبراهيم عوض

النابغة الجعدى وشعره

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

النابغة الجعدي وشعره

الدكتور إبراهيم عوض

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

دار النهضة العربية

٣٢ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

رقم الإيداع ٣٦٠٦/ ٩٦
الترقيم الدولى ٥-٠٢٠٤ - ١٩ - ٩٧٧

المقدمة

تتناول هذه الدراسة حياة النابغة الجعدى وشخصيته وشعره . وقد كانت هناك عدة مسائل تحتاج إلى بحث وتمحيص ، مثل الكلام عن تعميره ، الذى يتجاوز به بعض القدماء مائتى العام ، ومدى انسجام هذا مع قوله الشعر الجيد المتماسك وهو فى أخريات حياته ، وكمسألة تحنّفه ، التى تؤكدها الروايات القديمة ويسلّم بها من كتبوا عن الشاعر من المحدثين ، والتى أثبتُّ عن طريق تحليل وقائع حياته وملامح شخصيته وحديثه فى شعره عن ذكرياته الجاهلية أنها غير صحيحة بالمرة ، وكمسألة نسبة قصيدة « الحمد لله لا شريك له » ، التى اختلف مؤرخو الأدب العربى بشأنها ، فبعضهم جعلها لأمية بن أبى الصَّلْت ، وبعضهم عزاها لشاعرنا ، وبعضهم قال إنها لنابغة بنى شيبان الشاعر الأموى المشهور ، والتى انتهيتُ من دراستى الفاحصة لمعانيها إلى أنها لا يمكن أن تكون إلا للنابغة الجعدى دون الشاعرين الآخرين ، وكمقولة الأصمعى التى ادعى فيها بأن الشعر قد لان وضعف فى الإسلام لدخوله حينذاك فى أبواب الخير وبُعْده من ثمّ عن طريق الفحول من هجاء ووصف للفرس وما إلي ذلك ، والتى اقتضتنى مناقشتها الرجوع إلى كل ما

أتيح لى من دواوين الشعراء المخضرمين حتى يكون حكمى فى هذه القضية مستندًا إلى شىء صلب وليس مجرد كلام نظرى ، فتبيَّن لى على ضوء ذلك أن كلام الأصمعى هو حكم بلا حيثيات ، وأنه يناقض منطق الأشياء ووضع الشعر فى ذلك العصر ، ذلك الشعر الذى أثبتُّ أنه لم يدخل كله فى باب الخير حسبما يفهم الأصمعى الخير ، بل ظلَّ يتغزل ويهجو ويقذع أحيانا ويعمل على استثارة العصبيات القبلية ، وذلك إلى جانب القضايا والمعانى الإسلامية التى جاء بها الدين الجديد والتى لا تَلازُم بينها وبين ضعف الشعر ولينه كما ادعى الأصمعى ، إذ إنها كسائر القضايا والمعانى الأخرى من حيث إن الشاعر قد يبدع فيها وقد يتهافت ، وذلك حسب طاقته الشعرية واختياره الوقت والحالة النفسية الملائمين لإنشاء القصيدة .

ومن المسائل التى تناولتها هذه الدراسة أيضا ما يردده الباحثون من قدماء ومحدثين من أن النابغة الجعدى كان مغلَّبا ما هاجى أحدًا إلاَّ غُلِبَ أمامه . وقد أظهرت مناقشتى لهذه المسألة أنها مجرد كلام لا ينهض على أساس .

وقد ختمتُ الدراسة بفصل فى تقويم فن الشاعر واستخلاص السمَات التى تميّزه وتجعله متفرد النكهة . والله ولى التوفيق .

حياة النابغة وشخصيته

هو من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا فى الجاهلية والإسلام . والنابغة لقبه . وقد اختُلف فى السبب الذى من أجله أُطلق عليه هذا اللقب : فمن قائل إنه لم يسبق له أن قال شعرا قبل أن يبلغ الثلاثين ، ثم سال لسانه به فجأة فَعُدّ هذا منه نبوغاً . ومن قائل إنه كان ينظم الشعر فى الجاهلية ثم أُرتج عليه هذا الباب ، ليعود إلى النبوغ فيه فى الإسلام .

واسمه هو أيضا مختلف فيه : فهل هو حيّان بن قيس أو عبد الله بن قيس أو قيس بن عُدَس ؟ أما كنيته فأبو ليلى .

ونفس الاختلاف نجده حول عمره : فبعضهم يكتفى بأن يبلّغه إلى مائة وعشرين سنة ، وبعض يمدّه إلى المائتين ، وبعض ثالث يرتفع به عن ذلك ، والبعض ينزل به إلى مائة وثمانين . لكنه على أية حال كان معمّرا ، فإننا لو اكتفينا بأن عمره حين مات كان مائة وعشرين سنة لكان هذا دليلاً على تعميره . ويقول مترجموه من القدماء إنه عاصر المنذر بن محرق والد النعمان بن المنذر ، وإنه أكبر من النابغة الذبيانى ، إذ لم يعمّر هذا كما عُمِّر سَمِيُّه الجعدى . وقد رأى بلاشير فى الروايات التى تتحدث عن معاصرة الشاعر لوالد النعمان بن المنذر وأنه عاش

عمرا أطول من النابغة الذبيانى مجرد أوهام ، دون أن يقدم دليلاً على ذلك (١) . إننا قد نستبعد أيضا أن يكون النابغة قد عاش حتى جاوز المائتين أو حتى وقف عندها ، بل قد نستبعد أن يكون قد عُمِّر إلى أن بلغ مائة وثمانين سنة ، وذلك جريا على ماخبرناه من أعمار غالبية الناس . لكن هذا شىء ووصف القول بأنه عاصر النعمان بن المنذر وأنه عُمِّر أطول من النابغة بأنه أوهام شىء آخر .

وإذا قمنا بعملية حسابية أساسها أنه وُلد فى عصر المنذر بن محرق وأنه توفى فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى ، إذ معروف أنه قد وفد على ابن الزبير بعد أن أصبح خليفة (وكان قد بويع له بالخلافة سنة ٦٤) تبين لنا أن من غير المستبعد أن يكون قد عاش حتى جاوز أعوامه المائة بعشرين أو نحو ذلك . ذلك أن النعمان بن المنذر هذا قد ولى الحكم قبل مبعث النبى عليه السلام بأربعة وعشرين عاماً على ما يقول الطبرى فى تاريخه (٢) . فلو أضفنا الـ ٢٤ عاماً هذه إلى الـ ١٣ عاماً التى قضاها النبى عليه السلام فى مكة بعد مبعثه ، إلى ٦٤ عاماً مابين هجرته صلى الله عليه وسلم والمناداة بابن الزبَيْر خليفة كان عندنا مائة عام وواحد . وهذا على فرض أن

الشاعر قد ولد فى آخر سنة فى ملك المنذر ، ووفد على ابن الزبير ثم مات، فى نفس السنة التى بويع فيها خليفة . والمؤكد على الأقل أن تاريخ ميلاده كان قبل هذا التاريخ المفترض بكثير . ذلك أنه يقول فى إحدى قصائده :

تذكرت والذكرى تهيج على الهوى ... ومن عادة المحزون أن يتذكرا
ندامای عند المنذر بن محرّقٍ ... أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفرا
كهول وفتيان كأن وجوههم ... دنانير مما شيف فى أرض قيصرا

والإنسان لايكون نديماً للملوك إلا إذا كان على الأقل شابّا . ومعنى هذا أن من المعقول جدّا أن يكون النابغة قد بلغ المائة والعشرين عاماً إن لم يكن تجاوزها (٣) . ومن ثَمَّ فلا معنى لرفض بلاشير الذي مرت الإشارة إليه ، وبخاصة أنه لم يورد دليلاً عليه ولاحاول أن ينفى نسبة هذه الأبيات السالفة ، ولاتلك التى يقول فيها الشاعر :

ولقد شهدت عكاظ قبل محلّها ... عنها ، وكنتُ أُعَدُّ م الفتيان
والمنذر بن محرق فى ملكه ... وشهدتُ يوم هجائن النعمان
وعمرت حتى جاء أحمد بالهدى ... وقوارع تتلى من القرآن

بل إن النابغة قد قال بصريح اللفظ إنه قد عاش مائة سنة واثنتى عَشرة . ولم يكن هذا آخر شيء قاله . وقد ذكر فى ذلك الشعر أنه عاصر انتشار مرض الخنان . ويقول الذين ترجموا له

إن هذا المرض كان على أيام المنذر بن ماء السماء :

فمــن يــك سائــلا عنــى فإنــى ... مــن الفتيــان أيــام الخنــانِ
مضــت مائــةٌ لعام ولــدتُ فيــه ... وعشــر بعــد ذاك وحجتــانِ
فأبقــى الدهــر والأيــام منــى ... كمـا أبقى من السيــف اليمانــى
تفلّــل وهــو مأثــور جُــرازٌ ... إذا جُمِعــَتْ بقائمــه اليــدان

وغير ذلك من الشعر ، فقد كان النابغة يكرّر الإشارة إلى طول عمره .

وقد أنكر د. شوقى ضيف نسبة مثل هذا الشعر إلى النابغة وأكد أنه مصنوع بلاشك عليه . إلا أنه لم يعمل على أن يذكر الأسباب التى دفعته إلى القول بالنحل (٤) . والحقيقة أنه ليس من المستحيل أن يكون مثل هذا الشعر قد صُنع ونُحل للنابغة ، بيد أن عدم الاستحالة فى مثل هذه الظروف لايكفى . ولو جرينا على هذه القاعدة فى كل أبحاثنا لرفضنا تقريبا كل شىء لمجرد أنه غير مستحيل أن يكون الأمر بخلافه .

على أية حال فمن الواضح من هذه الشواهد الشعرية وغيرها أن الشاعر ظلّ محتفظا بقواه العقلية إلى آخر حياته رغم تعميره ، إذ لايستطيع الإنسان أن ينظم مثل هذا الشعر وهو فى تلك السنّ المتقدمة ولا أن يفد على ابن الزبير بعد ذلك ويمدحه بمثل مامدحه به النابغة إلاَّ وهو يقظ العقل والإدراك ، نشيط

الإحساس والموهبة الأدبية .

ولعلَّ هذه النقطة فى مسألة تعمير النابغة هى النقطة الوحيدة التى تتقلقل فى صدرى ، إذ يبدو لى غريبا أن يظل إنسان محتفظا بصفاء عقله وجيشان مشاعره ونشاط موهبته الشعرية إلى هذا العمر المتأخر . ولكن ماذا يمكننى أن أفعل وهذا شعر الرجل بين أيدينا وليس ثمة سبب يدعونى إلى الشكّ فيه ، ولست واجداً شيئا يمكن أن أسوّغ به أمام ضميرى القول بصنع هذا الشعر ونحله للنابغة ؟ ثم من ذلك الناحل ؟ وما مصلحته فى ذلك ؟ أو مادافعه إليه ؟ وهل يسوغ فى العقل أن نقول إنه قد تكرَّر منه هذا النحل ؟ ذلك أن الأشعار التى يتحدث الشاعر فيها عن طول عمره متعددة كما رأينا .

ذلك ، وقد حُكيت أشعار عن أناس أعلى من هذه السنّ بكثير ، مثل أنس بن مدرك ، وهو شاعر مخضرم أيضا كالنابغة . قال :

إذا ما امرؤ عاش الهنيدة سالماً — وخمسين عاماً بعد ذلك وأربعا
تبدّل مُرّ العيش من بعد حلوه — وأوشك أن يبلى وأن يتسعسعا
ويأذى به الأدنى ويرضى به العدا — إذا صار مثل الرأى أحدب أخضعا
رهينة قعر البيت ليس يريمه — لقىً ثاويا لايبرح المهد مضجعا
يخبّر عمّن مات حتى كأنما — رأى الصعب ذا القرنين أو رَاءَ تُبَّعا(ه)

والهنيدة هى المائة . ومعنى ذلك أنه قال هذه الأبيات وقد

جاوزها بأربعة وخمسين عاما .

هذا ، ويبدو أنَّ صحته لم تتخاذل رغم هذه السنّ العالية ، إذ يحكون عنه أنه لما وفد على عبد الله بن الزبير ومدحه أعطاه هذا أوساقاً من الحَبّ والتمر فكان يأخذ الحَبّ صحيحاً لم يطحن بعد ويأكله . ومعنى هذا أن أسنانه كانت لاتزال سليمة . فإذا بقيت الأسنان بهذه المتانة فلا بدّ أن تكون صحة صاحبها متماسكة على الأقل .

وقد نصّ القدماء نصًّا على أن أسنانه ظلت سليمةً رغم طول عمره ، وأرجعوا ذلك إلى دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم له عندما أنشده رائيته الشهيرة عام الوفود ، إذ قال مفاخرا بقبيلته :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنّا لنبغى فوق ذلك مظهرا

فسأله النبى عليه السلام مستغربا : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فردّ فى ثقة : إلى الجنة يارسول الله . فدعا له الرسول قائلا : لايفضض الله فاك .

وسواء أكانت قوة أسنانه وسلامتها رغم ذلك العمر المديد مرجعها إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام له أم كانت قوة طبيعية (وفى هذه الحالة يكون كلام الرسول مجرد تعبير مجازى عن شدة إعجابه بالشعر ولباقة صاحبه فى الردّ) (٦) ،

فإن من الصعب جدا علينا أن نقبل ماجاء فى بعض الروايات من أنه بسبب هذه الدعوة كان إذا سقطت له سنّ نبتت مكانها غيرها ، إذ إن فى هذا مخالفة تامة لما نعرفه عن هذا الأمر ، فالمعروف أن الإنسان لاتنبت له أسنان بعد مرحلة الصبا ، اللهم إلا مايسمونه « ضرس العقل » .

فإذا حاولنا استقصاء ماجاء فى سيرة حياته عن أحداث تلك الحياة مرحلة مرحلة لفت نظرنا أن أخباره فى الجاهلية تكان أن تكون فى حكم المعدومة ، ففيما عدا إشاراته السريعة والعارضة فى قصائده عن منادمته مثلا للمنذر بن محرق أو معاصرته لمرض الخُنان وما إلى ذلك لانعثر على شى ، اللهم إلا مايقال من أنه كان يجلس فى الجاهلية فى الموسم بعكاظ فتتحاكم إليه الشعراء ، فقدمت الخنساء يوما فأنشدته مرثيتها الرائية فى أخيها صخر ، فحكم لها بأنها أفضل شاعرة فى النساء قائلا : « أنت أشعر من كل ذات ثديين » ، فأجابته من فورها : « ومن كل ذى خصيتين » ، تريد أنها أشعر من الرجال أيضا (٧) ، ولا أدرى مدى صحة ذلك (٨) ، وكذلك أنه كان ممن فكر فى الجاهلية وأنكر الخمر والسُّكْر وماتفعل بالعقل وهَجَر الأزلام والأوثان وقال كلمته التى أوَّلها :

الحمد لله لاشريك له من لم يقلها فنفسه ظلما (٩)

وكان يذكر دين إبراهيم والحنيفية ويصوم ويستغفر ويتوقع أشياء لعواقبها.

وقد نقل بعض المعاصرين ذلك الكلام نقل المصدق له : منهم جرجي زيدان (١٠) ، والشيخان أحمد الاسكندرى ومصطفى عنانى (١١) ، والسيد أحمد الهاشمى (١٢) ، ومحقق الديوان (١٣) ، ود. يحيى الجبورى (١٤)، ود. محمد طاهر درويش (١٥) ، ود. عمر فروخ (١٦) ، ود. محمد خضر (١٧) ، ود. عفيف عبدالرحمن (١٨) ، ود. محمود حسن أبوناجى (١٩) ، ود. خليل إبراهيم أبوذياب (٢٠) .

والواقع أن هذه مجرد دعوى مرسلة لادليل عليها ، فشعر النابغة يخلو مما يمكن أن يتخذ دليلاً على ذلك أو حتى يعضده أو يشير إليه مجرد إشارة . بل العكس هو الصحيح ، فإن فى هذا الشعر مايدل على خلافه ، فهو يقول :

قالت أمامة : كم عمرت زمانة وذبحت من عِتْر على الأوثان !
ولقد شهدت عكاظ قبل محلها عنها ، وكنت أُعَدُّ مِ الفتيان

ومن الواضح أن « كم » هنا للتكثير لا للاستفهام ، مما يفيد أنه كثيرا ما تقرب بالقرابين للأصنام . كذلك فإن فى شعره ذكراً كثيراً لشربه الخمر فى الجاهلية ، حتى فى شعره الإسلامى ، مما يدلُّ على أنه لم يكن يشرب الخمر فى الجاهلية

وحسب بل على أنه أيضا لم يكن يجد حرجاً فى الإشارة إلى ذلك حتى بعد أن أسلم . ومن هذه الأشعار قوله فى قصيدته التى أنشدها بين يدى معاوية بن أبى سفيان :

وصهباء لاتُخفى القذى وهى دونه   تُصَفَّق فى راووقها ثم تُقْطَبُ
شربت بها والديك يدعو صباحه   إذا مابنو نعش دنَوا فتصوبوا

وقوله :

وقهوةٍ صهباء باكرتُها   بِجُهْمَةٍ والديك لم يَنْعب

ليس ذلك فقط ، فإنه حتى فى رائيته التى أنشدها بين يدى النبى عليه السلام حين وفد عليه فى السنة التاسعة للهجرة مع قومه لإعلان الإسلام نراه يقول :

تذكرت شيئا قد مضى لسبيله   ومن حاجة المحزون أن يتذكرا
ندامای عند المنذر بن محرق   أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفرا
كهولا وشباناً كأن وجوههم   دنانير مما شيف فى أرض قيصرا
إذا ملك من آل جفنة خالُه   وأعمامُه آل امرىء القيس أزهرا
يردّ علينا كأسه وشواءه   مناصفةً والشرعبىّ المحبّرا
وراحا عراقيا وريطا يمانياً   ومُعْتَبَطاً من مِسْك دارين أذفرا

ومن الواضح رنة النشوة والابتهاج والفخر فى هذه الأبيات .

كذلك فإن تشبيهه ريق حبيبته بالخمر (وأى خمر ؟ إنها :

... قرقفٌ سلافةُ   إسفنطٍ عقارٌ قليلةُ النَّدَمِ
أُلْقِى فيها فِلْجانِ من مسك   دارين وفِلْجٌ من فُلْفُلٍ ضَرِمِ)

ليدل على أنه بالخمر جدّ بصير .

كما أن قصائده ترينا أنه كان يعيش فى الجاهلية كسائر الجاهليين يخوض معامع المعارك القبلية ويسبى النساء ويفاخر بقومه مفاخرة من لايرى لهم فى الحياة كفئا ولانظيرا مع احتقار شديد للقبائل الأخرى . وهذا الكلام إنما تتضمنه فى الغالب قصائده الإسلامية ، مما يبرهن لنا على أن هذه الروح ظلت مشتعلة لم تَخْبُ حتى فى الإسلام . ورجلٌ بهذه الشخصية من الصعب جداً الصعب علينا أن نتصوره من المنصرفين فى جاهليته دونما سبب قاهر عن عقائد قومه وعاداتهم ونهج حياتهم إلى البحث عن حقيقة الأديان . ويؤكد هذا تأكيدا قويا شعره الفخرى والهجائى الإسلامى ، فمثل ذلك الشعر لاينبىء بأن صاحبه من المفكرين والمتأملين الذين يؤثرون الحياة الساكنة .

فإذا أضفنا أنه لم يتطرق فى شعره إلى شىء يفهم منه أنه كان على دين إبراهيم وأنه كان نابذاً للأصنام تبين لنا أن ما قيل عنه فى هذا الصدد هو كلام مجرد كلام .

كذلك فلو كان فى الجاهلية على الصورة التى رسمتها لنا تلك الرواية لما تأخّر فى الوفود على النبى إلى أخريات حياته صلى الله عليه وسلم ، فإن شخصاً بهذا الشكل ماكان ليصبر على المجىء إلى النبى ، ولو لمجرد الاستطلاع ، اثنين وعشرين

عاماً كلها ممتلئة بالأحداث والصراعات الرهيبة بين ذلك النبى ودينه من جهة وبين الكفار بأصنامهم وخمرهم وزناهم وعدوانهم وكِبْرهم من جهة أخرى .

أما القصيدة التى أولها :

الحمـــد للـــه لاشريـــك لـــــــه مـــن لـم يقلهـــا فنفســـه ظلمـــا

بما فيها من كلام عن التوحيد والبعث والجنة والنار والتقوى والالتفات إلى آيات الكون والخلق باعتبارها دلائل على وجود الله وقدرته وعظمته ، والتى يقول بعض القدماء إن النابغة قد نظمها فى الجاهلية كما مرَّ بنا فسوف نبيّن فى موضعه أن الأمر فيها لايمكن أن يكون كذلك وأنه إنما نظمها فى الإسلام .

بل إن فى القصيدة اللامية التى ألقاها بين يدى النبى بيتين يدلاّن بأجلى دليل على أنه لم يكن فى جاهليته من ناحية الدين بالصورة التى تقدمه لنا بها الرواية السابقة وأنه إنّما استطاع (بالكاد) أن يعلن إسلامه فى حياة الرسول وقبل أن يبادره أجله :

حتـــى أتـــى أحمـــد الفرقان يقرؤه فينـــا ، وكنـــا بغيب الأمر جهـــالا
فالحمـد للـــه إذ لم يأتنـــى أجلـــى حتـى لبسـت مـن الإســـلام سربـــالا

وحتى فى الرائية التى ألقاها وهو واقف بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم نجده يفخر بقومه فخرا عنيفا يكاد يتفجَّر

من عنفه ، وينقض بصواعق هجومه على خصوم قبيلته . ولو كان على دين إبراهيم عليه السلام لانصرف على الأقل إلى الكلام عن رحلة بحثه عن الحقيقة وذكر تحنفه فى الجاهلية وكيف أن إسلامه كان نتيجة طبيعية لذلك .

أما قوله فيها :

وطوفتُ فى الرهبان أَعْبُرُ دينهم   وسيّرتُ فى الأحبار مالم تسيّرا

فهو بيت يتيم فى ديوانه من جهة . ومن جهة ثانية فقد شرع بعده مباشرة يتذكر أيامه عند المنذر بن محرق ومنادمته له وشربه الخمر هناك ... إلخ ، مما لايتناسب مع ذلك البيت ، وهو مايدل على أنه ليس إلا كلاماً عابراً . ومن جهة ثالثة ، وهذا هو المهمّ ، فإن هذا البيت يتحدث عن الرهبان والأحبار ، وهؤلاء دينهم شىء ودين إبراهيم شىء آخر . ثم إنه يقول إنه كان ينظر فى دينهم ويحاول التعرف إليه لا إنه قد استقرّ على دين معين ومارس شعائره . وليس فى كلامه أية إشارة إلى صيام أو استغفار على حسب ماتدّعى الرواية التى نحن بصدد مناقشتها .

ثم إنه يقول عقيب ذلك البيت :

فأصبح قلبى قد صحا ، غير أنه   وكل امرىء لاقٍ من الدهر قِنْطِرا

وهو مايعد اعترافا منه بأنه كان فى الجاهلية ضالاً ، فلما وفد

على محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به أفاق من هذا الضلال .

وأخيراً فإن رجلاً يقول فى الإسلام لامرأة (هى ليلى الأخيلية) ، وكانت قد ناصرت بعض أخصامه :

ألا حيّيا ليلى وقولا لها : هَلاَ فقد ركبتْ أمراً أغرّ محجّلا
دعى عنك تهجاء الرجال وأقبلى على أذْلَغِىّ يملأ استك فَيْشَلا
بُرَيْنينة بلّ البراذينُ ثَفْرَها وقد شَرِبَتْ فى أول الصيف أيِّلا (٢١)

ليس من السهل أبدا علينا أن نقتنع بأنه كان متحنفا فى الجاهلية . هذا ، ونضرب عن الاستشهاد بالبيت الذى ورد فى قصيدته السابقة التى ألقاها على مسامع الرسول وأصحابه ، ونصه : :

إذا أنعظ المعدىّ قبّل لَيِّرَةُ وألقمه فاه فكان له جِرا

لأنه إنما ورد فيها على إحدى الروايات فقط (٢٢) ، أما الروايتان الأخريان فلا تعرفانه (٢٣) ، ولم يذكره صاحب « الجمهرة » ضمن القصيدة ، علاوة على أن الخيال فيه يبدو لى أليق بالعُصور التى تلت صدر الإسلام لا ذلك العصر .

هذا ماقيل عن جاهلية النابغة الجعدى ، وذلك رأينا فيه . أمّا فى الإسلام فإننا نفاجأ به عضوا فى وفد قبيلته الذى قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم عام الوفود ينشده رائيته التى تكررت الإشارة إليها ، ومطلعها :

خليلىَّ . غُضّا ساعة وتهجّرا ولوما على ما أحدث الدهر أو ذَرا (٢٤)

والتى أبدى النبى إعجابه بها ودعا له ألا يُفَضَّ فوه ، مما سبقت الإشارة إليه .

وقد ذُكر أنه وفد على الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأنشده سينيته التى يقول فى مطلعها :

لبستُ أناساً فأبليتهم وأبليت بعد أناسٍ أناسا

وأن عمر سأله عن مدى طول عمره فأجابه بأنه عاصر ثلاثة أجيال كل جيل ستون عاماً .

وفى عهد عثمان رضى الله عنه نسمع به وقد ضربه أبو موسى الأشعرى أسواطاً لأنه خرج مع عصبة له استجابة لنداء سمعه من قومه يصيحون به على أفراد القبيلة أن يخرجوا لنصرتهم ، عندما بعث فى طلبهم أبو موسى حين رعوا زرع الدولة فيما يبدو . وقد قال شاعرنا فى أبى موسى الأبيات التالية مغتاظاً ، وله كل الحقّ إن كان كل مافعله هو ماحكته لنا القصة :

رأيتُ البكر بكر بنى ثمودٍ وأنت أراك بكر الاشعرينا
فإن يكن ابن عفانٍ أمينا فلم يبعث بك البرّ الأمينا
فيا قبر النبى وصاحبيه ألا يا غوثنا لو تسمعونا
ألا صلّى إلهكم عليكم ولا صلى على الأمراء فينا

ونشهده فى عهد عثمان أيضا وقد أتاه يودعه مسافراً إلى مضارب قومه فى البادية ، فقد غلبه الحنين إلى الوطن على

نفسه ، فذكّره عثمان رضى الله عنه بأن المهاجر لايصحّ له أن يعود إلى دياره لأن ذلك مكروه . ومع هذا فقد نزل عثمان على رغبته وسمح له بالعودة إلى دياره على أن يرجع إلى المدينة مرة أخرى بعد أجلٍ ضربه له . وتمضى الرواية فتقول إنه قد مرَّ بابنى علىّ : الحسن والحسين رضى الله عنهما وأنشدهما ميميته التى تبتدىء بقوله :

الحمد لله لاشريك له ... من لم يقلها فَنَفْسَه ظَلَمَا

أما فى عهد على كرّم الله وجهه فقد انضم إلى صفوف جيشه ينصره بالسنان واللسان . وفى معركة صفّين نسمعه يهتف مشيدا به وهاجيا معاوية وبنى أمية متهما إياهم بالنفاق وداعيا عليهم بالفشل :

قد علم المصران والعراقُ ... أن عليا فحلُها العُتاقُ
أبيض جحجاح له رِواقُ ... وأمه غالى بها الصداق
أكرم من شُدَّ به نِطاقُ ... إن الأُلَى جاروك لا أفاقوا
لهم سباق ولكم سباق ... قد علمتْ ذلكم الرفاق
سُقْتُم إلى نهج الهدى وساقوا ... إلى التى ليس لها عراقُ
فى ملّة عادتها النفاق

وكان معاوية ، بعد أن استقر الأمر له ، قد أمر مروان واليه على المدينة أن يأخذ أهل النابغة وماله ، فأتى النابغة معاوية وقد أعدّ قصيدة شديدة لاتخلو من تهديد يستنكر فيها ماوقع

من غبن عليه وعلى آله . وليس فى القصيدة أى استعطاف ، على عكس مايذهب إليه د. شوقى ضيف (٢٥) ، إذ لاشكَّ أن الأبيات التالية ، وهى بعض أبيات القصيدة ، أبعد ماتكون عن روح الاستعطاف :

فَمَنْ راكبٌ يأتى ابن هند بحاجتى	على النأى ؟ والأنباء تنمى وتُجْلَبُ
فإن تأخذوا أهلى ومالى بظنة	فإنى لجرّاب الرجال مُجَرَّب
صبور على مايكره المرء كلّه	سوى الظلم . إنى إن ظُلِمْتُ سأغْضَبُ
ولما رأينا أنكم قد كثرتمو	وخبّ إليكم كل حىّ وأجلبوا
عرانا حفاظ ، والحفاظ مهالك	إذا لم يكن من ورده متنكَّبُ
فجئنا إلى الموت الصُّهابىّ بعدما	تجرد عريان من الشّرّ أخدب
فلما قضيتم كلّ وتر ودمنة	وأدرككم نصر من الله معجب
وأدركتمو ملكا خلعتم عذارنا	كما خلع الطرف الجواد المجرَّبُ
ومال الولاء بالبلاء فملتمو	علينا ، وكان الحق أن تتقربوا
ولاتأمنوا الدهر الخؤون ، فإنه	على كل حال بالورى يتقلب
وأعلم أن الخير ليس بدائم	علينا وأن الشر لاهو يرتبُ

وإن القصيدة التى ساقها صاحب « الأغانى » مع هذه القصيدة لدليل أيضا على مانقول ، فهى تذكر أن معاوية قد ثاب إليه الرشاد ورجع عما كان أمر به فى آل النابغة وماله وسفَّه رأى مروان ، الذى كان يصرّ على العقوبة انتقاما من النابغة لمؤازرته عليّا كرم الله وجهه ، قائلا له : « ما أهون ، والله ، عليك ان ينجحر هذا فى غار ثم يقطع عرضي علىّ ثم

تأخذه العرب فترويه ! أما والله إن كنتَ لمَّن يرويه . اردد عليه كل شيء أخذته منه » (٢٦) .

ومثل هذه الأبيات عنفا واستنكاراً بيتاه التاليان ، وقد قالهما أيضا لمعاوية فى نفس الموضوع ، وألحقهما بالقصيدة السابقة لما رآها لم تأت بالنتيجة المطلوبة :

ألم تأت أهل المشرقين رسالتى ؟ وأى نصيح لايبيت على عَتْبِ ؟
ملكتم فكان الشر آخر عهدكم لئن لم تدارككم حلوم بنى حرب

وليس فى ديوان النابغة أى مديح لمعاوية أو لأحد من آل بيته ، ولكن فيه مديحا لابن الزبير قاله فيه عندما أتاه يستغيثه لقومه من مجاعة حلت بهم . قال :

حكيت لنا الصدّيق لمّا وليتنا وعثمان والفاروق فارتاح مُعْدِمُ
وسوّيت بين الناس فى الحق فاستووا فعاد صباحا حالك الليل مظلم
أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى دجى الليل جوابُ الفلاة عثمثم
لتجبر منه جانبا ذَعْذَعَتْ به صروفُ الليالى والزمان المصمِّمُ

ولكن الغريب أنه لم يذكر اسم علىّ مع الخلفاء الثلاثة الآخرين الذين جعلهم مثلاً أعلى يحتذيه ابن الزبير فى سيرته مع رعيته . ولست أدرى السبب فى هذا ، فقد كان الشاعر كما عرفنا من أنصاره الأوفياء ، بل من الذين احتملوا الضرّ فى سبيل هذه النصرة بعد وفاته كرم الله وجهه كما مرَّ بنا . ولعلَّ الفترة التى تولّى فيها علىّ أمور الأمة بما امتلأت به من الفتن

والقلاقل والحروب فى كل الجبهات لم تترك له الفرصة ليظهر عدله ورحمته بالرعية ، ومن ثمَّ فلم يخطر على بال النابغة أن يذكره فى هذه النقطة مع رفاقه الثلاثة الآخرين ، رضى الله عن الجميع . أقول : « لعل » ، ولا أزيد .

وهناك أبيات يخاطب فيها النابغة زوجته ، التى كانت فيما يبدو تعارض خروجه للجهاد وتَرْكَها هى والأولاد دون عائل يرعاهم ويعطف عليهم ، فهو يحاجّها بأن خروجه للحرب فى سبيل الله أمر حتمى أوجبه عليه الدين فلا فكاك منه . وهذه الأبيات تقول :

باتت تذكرنى بالله قاعدة ... والدمع ينهلّ من شأنيهما سَبَلاَ
يا ابنة عمّى ، كتاب الله أخرجنى ... كرها . وهل أمنعنّ الله مافعلا ؟
فإن رجعت فرب الناس يرجعنى ... وإن لحقت بربى فابتغى بدلا
ماكنت أعرج أو أعمى فيعذرنى ... أو ضارعاً من ضَنَىً لم يستطع حولا

وهى تدل على أنه اشترك فى الجهاد فى سبيل الله . لكننا لانعرف فى أى تاريخ ، وهل كان ذلك فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أو فى عصر الصديق أو الفاروق أو عثمان أو بعد ذلك .

وقد « قيل إن موت الجعدى كان بسبب ليلى الأخيلية ، إذ فرّ من بين يديها فمات مسافرا . والأصح أنها هى التى ماتت

فى طلبه » (٢٧) .

فهذه أخبار النابغة التى وصلتنا . ومن هذه الأخبار قد يمكن أن نستخلص بعض سمات شخصيته : إنّه شديد العصبية لقومه ، لا يكفّ عن المفاخرة بهم والاستجابة لندائهم حتى لو كان استصراخهم ضدّ الدولة نفسها وواليها ، مما جعل أبا موسى يضربه أسواطا . ويتصل بذلك رثاؤه الواله فى أخيه . ولا أظن النابغة كان مقدما ذا رئاسة فى قومه ، وإلا ماجرؤ أبو موسى على أن يفعل به مافعل ، ولا كانت هذه الحادثة لتمر بهذه البساطة .

وإن أبياته التى قالها فى وجه اعتراض زوجته على خروجه للمشاركة فى الغزو وتشبثها بأن يبقى معها هى وأولادهما لتوحى بقوة إيمانه واندفاعه فى سبيل نصرة الله والإسلام ، فهو لايلين ولايحاول حتى تلطيف الأمر عليها ، بل يعالنها بكل قوة وحسم أن ذلك أن لامردّ له ، لأنه واجب دينى ، والواجب الدينى ليس فيه كلام ولا منه افكاك .

ومن الواضح أن النابغة كان يحب آل البيت حبّا خاصا : نعرف ذلك من أنه حين أذن له عثمان بالعودة إلى دياره لبعض الوقت تخفيفا للحنين الذى كان يعانيه مرَّ بابنى علىّ : الحسن

والحسين وأنشدهما الميمية المشهورة التى سلف الحديث عنها ، وكذلك من وقوفه مع علىّ ضد معاوية . بل إنه من شدة إعزازه له كرم الله وجهه كان يأخذ بخطام بعيره فى صفّين وهو يرتجز بالأبيات التى أسلفناها فى الإشادة به وبكرم عنصره وهجو بنى أمية والدعاء عليهم .

وقد رأيناه بعد أن استتب الحال لمعاوية فأخذ ينتقم من أنصار علىّ يفد عليه بقصيدة شديدة اللهجة يطلب منه أن يفكّ أهله وماله اللذين كان قد أمر مروان أن يأخذهما . وهى قصيدة تدل من جهةٍ على وفائه لعلى ، إذ لم يحاول قط الاعتذار لمعاوية عن معاضدته له ولو على سبيل التقية ، ومن جهة أخرى على شجاعته وصلابته . وهذه إحدى سمات شخصيته أيضا .

كذلك كان فى النابغة شيء من خشونة البادية وصراحتها العارية فى التعبير ، فإن فى أشعاره بعض الألفاظ والعبارات التى يُحْتَشَم منها ، رأيناه يقولها فى بساطة من لايشعر فيها بشيء يُسْتحَىَ منه . وقد ردّت ليلى الأخيلية على بعض هجائه العارى بهجاء عارٍ مثله لم تستح هى أيضا منه ، مما سنتعرض له لاحقا . ومن هذا الباب أيضا كلامه للخنساء بسوق عكاظ فى تقدير شعرها ، مما مرّ بنا مع جوابها عليه .

كذلك فإن أبياته التى فيها استطالة أمامة لعُمْره واستكثارها ما ذَبَح من عِتْر على الأوثان لتبين لنا أن خلة الصراحة والتعبير المباشر عما فى نفسه هى من خلال شخصيته . ومثل ذلك أبياته فى هجاء زوجته ، وكان قد طلّقها ، فكانت تأتيه فى المنام ولاتتركه يهنأ بحياته ، مما جعله ينظم فيها شعراً يشتمها فيه ويتهكم بها وبتصرفاتها الحمقاء فى بيت الزوجية ، فهى تدل على أنه لم يكن يتحرج من نفض ما بدخيلة نفسه وبيته على أبصار الناس وأسماعهم . وسوف نتعرض لتلك الأبيات فيما بعد . ومن هذا القبيل أيضا أنه عندما أمر ابنُ الزبير بوسق عدة جمال له بالحَبّ والتمر أقبل على الحَبّ يأكله صحيحا من الجوع أمام الحاضرين ، غير منتظر حتى يُطْحَن .

وكان إذا تغير له قلب صديق أعطاه صفحه وانصرف عنه لايبالى . هكذا قال فى شعره . فهو إذن ليس من ذلك الصنف من البشر الذى يصبر إن رابه من صديقه شىء ويسامحه مؤمّلا أن يعود الود بينهما كما كان ، بل يجازى على الفتور والهجر بفتور وهجر مثله .

وعندما طال به الدهر أخذ يتحسر على شبابه الذى ولَّى ، مُتذكراً فتوته واطّباءه للغيد الحسان ، اللائى أصبحن الآن

يتنكبنه بعد أن صوّح زهره وجفت خضرته .

وهو لايجد حرجاً ، أثناء استرجاعه ذكريات الماضى ، فى أن يفتخر أيضا بشرب الخمر ومنادمة المنذر بن محرّق عليها ، رغم أنه كان قد أسلم بأخرة ، أى بعد أن كانت الخمر قد حُرِّمت (٢٨) .

الهوامش

١- بلاشير / تاريخ الأدب العربى / ترجمة د. إبراهيم الكيلانى / دار الفكر / ط ٢ / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م / ٥٦٣ . والملك الذى استبعد بلاشير معاصرة النابغة له هو النعمان لا أبوه . ولا أدرى السبب فى هذا التبديل .

٢- تاريخ الطبرى / ليدن / ١ / ٩٠٠ .

٣- بل أحيانا ما نسمع فى عصرنا عن أناس نيفوا على هذه السن . وعادةً ما يكونون من سكان الجبال ، وطعامهم عادة اللبن والأغذية غير المطبوخة . ولعلّ البيئة الصحراوية تشبه المناطق الجبلية فى هذا : فالأطعمة غير معقدة ، والقلق المصاحب للازدحام العمرانى والتقدم الحضارى غير معروف ... إلخ .

٤- انظر كتابه « العصر الإسلامى » / دار المعارف / ط ٧ / ١٠٢ .

٥- انظر السجستانى / المعمرون والوصايا / تحقيق عبدالمنعم عامر / عيسى البابى الحلبى / ١٩٦١ م / ٤٢ - ٤٣ .

٦- كما أن دعاءه لأحد الصحابة بـ « تربت يداك » هو مجرد تعبير مجازى عن شدة الحث على الزواج لا دعاء عليه بالفقر (بخارى / نكاح /١١، وأبو داود/ نكاح /٤) . ومن ذلك الباب أيضا قوله عليه السلام لصحابي آخر : « ثكلتك أمك » . وبطبيعة الحال لايمكن أن يقصد الرسول بذلك أن يدعو عليه بالهلاك وتثكله أمه فعلاً ، بل هو مجرد استنكار لما فعله ذلك الصحابى (البخارى / أذان /١١٧، وابن ماجة / فتن / ١٢، ٢٦) .

٧- انظر ابن نباتة / سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون / تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم / دار الفكر العربي / ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م / ٤٢٥ - ٤٢٦ .

٨- يقول د. ناصر بن سعد الرشيد إن « حَكَم العرب في عكاظ هو النابغة الذبيانى » . ثم يتساءل بعد قليل : « هل هناك حكم أدبى غير النابغة ؟ » ليجيب بأنه «لم تذكر كتب الأدب والتاريخ اسماً آخر غيره » ، وهو لايستبعد أنه كان هناك

حكام أدبيون آخرون أهملت ذكرهم الكتب (سوق عكاظ في الجاهلية والإسلام / دار الأنصار / القاهرة / ط ١ / ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م / ٤٠ - ٤١) . على أية حال ، هذا هو ابن نباته يذكر النابغة الجعدى أيضا ، وإن لم يخبرنا من أين استقى هذا الخبر .

٩- الأغانى / مؤسسة عز الدين / بيروت / ٤ / ١٣٠ . وانظر شيئا قريباً من ذلك فى « الاستيعاب » لابن عبد البر / المكتبة التجارية الكبرى / ٣ / ٥٥٣ ، و « خزانة الأدب » للبغدادى / المطبعة الأميرية / ط ١ / ١ / ٥١٤ .

١٠- انظر كتابه « تاريخ الآداب العربية » / مراجعة وتعليق د. شوقى ضيف / دار الهلال / ١ / ١٥٥ .

١١- انظر كتابهما « الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه » / دار المعارف / ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م / ١٦٣ .

١٢- انظر كتابه « جواهر الأدب » / المكتبة التجارية الكبرى/ ط ٢١ /١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م / ٢ / ١٤٤ .

١٣- ديوان النابغة الجعدى / تحقيق عبدالعزيز رباح / المكتب الإسلامى / دمشق / ط ١ / ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م / ل .

١٤- انظر كتابه « شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه » / مؤسسة الرسالة/ بيروت / ط ٢ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / ٢٢٨ .

١٥- انظر كتابه « حسان بن ثابت » / دار المعارف / مكتبة الدراسات الأدبية رقم ٤٣ / ٤٧ .

١٦- انظر كتابه « تاريخ الأدب العربى » / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٤/ ١٩٨١م / ١ / ٣٤٢ .

١٧- انظر كتابه « أدب صدر الإسلام » / بيروت / ١٤٠١ هـ -١٩٨١م /٢٥٠ .

١٨- انظر كتابه « معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين » / دار العلم/ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م / ٣٥٧ .

١٩- انظر كتابيه « شعراء العرب الفرسان فى الجاهلية وصدر الإسلام » / مؤسسة علوم القرآن / دمشق وبيروت / ط ١ / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م / ١٣٦ .

٢٠- انظر كتابيه « النابغة الجعدى - حياته وشعره » / دار القلم (دمشق) والمنارة (بيروت) / ط ١ / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م / ١٦٠ . وقد وقع لى هذا الكتاب بعد انتهائى من هذه الدراسة بشهور ، فأحلتُ إليه في المواضع التى رأيت أنها تتطلب ذلك .

٢١- « هَلاً » كلمة يُصاح بها على الناقة حين يطرقها الفحل لتستكين لما يفعله بها . والأذلغيّ الفيشل : الذَّكَر الضخم . وفي البيت الثالث يتهمها باستيلاء الغلمة والاهتياج عليها .

٢٢- شعر النابغة الجعدى / ٥٩ .

٢٣- السابق / ٦٩ و ٧٣ وما بعدها حيث لاوجود له في المكان الذى كان يحتله فى الرواية الأولى .

٢٤ - ص / ٣٥ ، ٦١ ، مع إبدال « عُوجَا » بـ « غُضًّا » فى الرواية الثانية .

٢٥- العصر الإسلامى / ١٠٢ .

٢٦- الأغانى / ٤ / ١٣٨ .

٢٧- العمدة / تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد / المكتبة التجارية الكبرى / ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م / ١ / ١٠٦ . وانظر أيضا « خزانة الأدب » / ٣ / ٣٣ .

٢٨- انظر في ترجمة النابغة وأخباره : السجستانى / المعمَّرون والوصايا /٨١ ، ٨٣ ، وابن قتيبة / الشعر والشعراء / تحقيق أحمد شاكر / دار المعارف / ١ / ٢٩٨ ومابعدها ، وابن سلام / طبقات فحول الشعراء / تحقيق محمود شاكر / مطبعة المدنى / القاهرة / ١ / ١٢٣ ومابعدها ، والأغانى / ٤/ ١٢٦ ومابعدها ، والمرزبانى / الموشح / تحقيق على محمد البجاوى / دار نهضة مصر / القاهرة / ١٩٦٥ م / ٨٩ ومابعدها ، و « معجم الشعراء » له أيضا ، وأمالى المرتضى / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / عيسى البابى الحلبى / ط ١ / ١٣٧٣ هـ -

١٩٥٤ م / ٢٦٣ ومابعدها، وجرجي زيدان / تاريخ آداب اللغة العربية / ١ / ١٥٥ ، والإسكندرى وعنانى /، الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه / ١٦٤ ومابعدها ، ود. شوقى ضيف / العصر الإسلامى / ١٠٠ ومابعدها ، ود. يحيى الجبورى / شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه / ٢٢٧ ومابعدها ، وحنا الفاخوررى / تاريخ الأدب العربى / المطبعة البولسية / ٢٤١ - ٢٤٢ ، وبلاشير / تاريخ الأدب العربى / ترجمة د. إبراهيم كيلانى/ ٥٦٣ - ٥٦٥ ، ود. عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى / ١ / ٣٤٢ - ٣٤٤ ، والمقدمة التى كتبها محقق « شعر النابغة » . وقد وقع في يدى بعد ان انتهيت من هذه الدراسة كتاب د. خليل إبراهيم أبوذياب / النابغة الجعدى - حياته وشعره . وقد تناول فيه حياة النابغة وشخصيته (ص ٩٧ -١٦٦) .

شعره وموضوعاته

وصلنا من شعر النابغة الجعدى عدد لابأس به من القصائد والمقطوعات عدا النتف والأبيات المفردة . وقد جاء عدد من قصائده بروايات مختلفة تتفاوت فى الطول ، وقد تتفاوت فى بعض الألفاظ أيضا . وقد جمع شعره وحققه مرتّبا إياه على حروف الألفباء عبدالعزيز رباح ، وألحق به مانسب إليه وإلى غيره من شعر . وقد استفاد ، كما يقول ، من عمل ماريا نلينو (بنت المستشرق الإيطالى المعروف كارلو نلينو) ، التى كانت قد جمعت شعر الشاعر ونشرته محققا ومشروحا بالإيطالية سنة ١٩٥٣ م (١) . ورغم الجهد الذى بذله المحققان فقد بقيت ثغرات فى بعض القصائد ينتقل فيها الكلام من معنى إلى آخر لا اتصال له به . كما ظلت هناك بعض الأبيات التى لم يستطيعا أن يعيّنا مكانها فى القصيدة التى رأيا أنها منها ، فكانا يثبتانها فى نهايتها .

ورغم هذا كلّه فإن الإنسان يستطيع أن يخرج بصورة لابأس بها لفن النابغة الشعرى ويتذوق شعره ويستمتع به .

وفى شعر النابغة هجاءٌ ومفاخرة ، وهما أغلب الشعر عنده . كما أن عنده غزلاً ، لكنه لايأتى أبدا مستقلاً

ولاطويلاً ، بل هى أبيات مرافقة للغرض الأصلى فى القصيدة التى وردت فيها . ومثل الغزل فى ذلك وصفه للخمر ، وكذلك نظراته الحِكْمية . وثمة أيضا أبيات فى مدح الرسول عليه السلام والاعتزاز بالإسلام . كما أن هناك أبياتا أخرى تأتى فى تضاعيف بعض قصائده تصور حزنه الأليم على أخيه وَحْوَح وتمجّد خلاله ومروءته وشهامته . ومثل ذلك الأبيات التى يصوّب فيها ناظريه إلى الماضى متذكرا شبابه ومسترجعا أوقات الهناء التى عاشها هناك ومتحسرا على مضى ذلك كله إلى عالم الفناء ، وكذلك تلك الأبيات التى يتحدث فيها عن الراحلين من قومه . وفى عدد من قصائده تقابلنا أبيات غير قليلة فى وصف الفرس ، وهو ما اشتهر به النابغة عند القدماء (٢) . وهذا كله غير القصيدة التى يبدؤها بتحميد اللّه وتوحيده مؤكدا أنّ من لم يقل ذلك فقد ظلم نفسه .

والحقُّ أن وصف النابغة للخيل هو أقل شعره عندى جاذبية . صحيح أنه ومثله من شعر الشعراء الآخرين كان يعجب القدماء ، لكنهم إنما كانوا ينجذبون إليه لما فيه من الغريب . أما الناحية الفنية وماتحدثه من نشوة فى النفس والعقل فإنى لا أجدها فى ذلك اللون من الشِّعر الذى يبدو فيه الشاعر عادة

وكأنه قد تخلّت عنه تلك الأحلام الدافئة التى تجعل من الشعر شعرا ، فإنه يذهب فى تقصى أجزاء ناقته ووصفها وصفاً عقليا لا أثر فيه للشعور . وتشبيهاته حينذاك تأتى ميتة ، إذ إن وجه الشبه فيها غالبا سطحى لا تحليق للخيال فيه ، فكأنه مجرد وسيلة تعليمية يراد بها التفهيم والتقريب .

وفضلاً عن ذلك ، فينبغى ألا ننسى أن الناقة والحصان اللذين شغف الجاهليون والإسلاميون بوصفهما والإطالة فى ذلك إطالة مسرفة فى غير قليل من الأحيان لم يعد لهما الآن نفس الدور الذى كانا يقومان به فى حياة العربى القديم ولا ترتبط حياتنا بهما كما كانت حياة ذلك العربى القديم ترتبط بهما . بل إن الأغلبية الساحقة منا لا تستطيع أن تعرف أسماء أجزاء جسميهما أو الأدوات التى توضع عليهما مما هو محلّ الوصف والتطويل فى شعرنا القديم ، فلقد أصبحنا نستعمل اليوم السيارة والقطار والطائرة لا الجمل ولا الحصان . بل إن أى شاعر لو وقف اليوم وقفة نظيره القديم فوصف لنا أجزاء أية وسيلة من وسائل مواصلاتنا هذه بالطريقة التى كان القدماء يصفون بها الحصان أو الناقة فلا شكَّ أنه سيكون مملاّ غاية الإملال . ولا أظنه سيهتم بكلامه أحد إلا المهندسون والميكانيكيون وأشباه

ذلك ، إذ الموضوع بهذه الطريقة يخلو تماما من الشاعرية أو يكاد (٣) .

ثم إن هذا الغرض الشعرى بالذات هو من الأغراض التى يكثر فيها الغريب الحوشى من الألفاظ ، إن لم يكن يأتى على رأسها ، ممّا يضاعف بَرَمنا به .

وعلى أية حالٍ ، فهذا شاهد على وصف النابغة للحصان . يقول مفاخرا بحصانه الذى لاقى به كتيبة من كتائب الأعداء :

تلاقيتهن بلا مُقْرِفٍ بطىءٍ ولاجَذَعٍ جانَبِ
بعارى النواهق صلت الجبين أجرد كالصّدَع الأشعبِ
يقطّعهنّ بتقريبه ويأوى إلى حُضُرٍ مُلْهِبِ
وإرخاء ، سِيدٍ إلى هضبة يوائل من بَرَدٍ مُهْذِبِ
إذا سيقت الخيل وسط النهار يُضْرَبْن ضربا ولم يُضْرَبِ
غدا مرحاً طَرِباً قلبهُ لَغِبْنَ وأصبح لم يَلْغَبِ
فليق النَّسا حبِطُ الموقفين يستنّ كالتيس فى الحُلَّبِ
مدلّ على سَلِطات النُّسُور شمّ السنابك لم تُقْلب
صحيح الفصوص أمين الشَّظَا نِيامُ الأباجل لم تُضرَبِ
كأن تماثيل أرساغه رقابُ وعولٍ لدى مشربِ
كأن حوافره مدبرا خُضِبْنَ وإن كان لم يُخْضَبِ
حجارةُ غَيْلٍ برَضْراضةٍ كُسِينَ طلاءً من الطحلب
وأوظفةٌ أيّدٌ جَدْلها كأوظفة الفالج المُصْعَب
ولوح ذراعين فى بركة إلى جوجو رَهِل المنكبِ
أُمِرَّ ونُحّىَ من صُلْبِه كتنحية القَتَبِ المُجْلَبِ

على أن حاركه مشرفٌ | وظهرَ القطاة ولم يَحدَبِ
كأن مقطّ شراسيفه | إلى طرف القُنْبِ فالمَنْقَبِ
لُطِمْنَ بتُرْسٍ شديد الصِّفا | ق من خشب الجوز لم يُثْقَبِ
ويصهل فى مثل جوف الطوى | صهيلاً يبيّن للمعرب
ومن دون ذاك هُوِىٌّ له | هوىّ القطامىّ للأرنب

ولعلّ أشجى شعر النابغة وأعلقه بالنفس هو الشعر الذى يسترجع فيه أيام شبابه حين كان يخلب الحسان بفتوته ونضارة عوده وسواد شعره الفينان ، مقابلاً بينها وبين شيخوخته التى تساقطت أوراق غصونها وبقيت جرداء ، وكذلك حين يرثى أخاه فيذهب يعدّد مآثره فى ولهٍ وحسرة ، أو حين تسأله سائلة عن السبب فى قلة عديد قومه فيجيبها بأن الدهر ، الذى لايبقى على شىء ولايذر ، قد أكلهم ضمن ما أكل .

انظر إلى انكساره وتضعضعه أمام ملاحظة سُلَيْمىَ عن ابيضاض شعره واضطراره ، لكى يوضح لها السبب فى ذلك ، إلى أن يذكر فعل المنون فى إخوته وأقاربه الذين خلفوه وراءهم وحيداً كقرن الثور الأعضب ، بما يهيجه كل ذلك من أحزان قديمة :

وقالت سليمى : أرى رأسه | كناصية الفرس الأشهب
وذلك من وقعات المنون | ففيئى إليك ولاتعجبى
أتين على إخوتى سبعةً | وعُدْنَ على رَبْعِىَ الأقرب

وســـــادة رهطـــىَ حتـــــى بقيـــ ـــت فـــردا كصيصيـــة الأعْضَــبِ

وتعجبنى انتقالتــه المفاجئة من سؤال سليمى إلى جوابه عليها ، إذ لم يحاول أن يمهّد لذلك الجواب بمايفيد أن كلامها قد انتهى وبدأ كلامه هو . ولعله أراد أن يوحى عن طريق النقلة القافزة بضيقه من هذه الملاحظة ، فهو لم يصبر حتى تتم كلامها أو على الأقل لم يُعْنَ بالفصل بين كلامه وكلامها ، شأن الذى لايطيق أن يسمع ما يقال فهو يبادر إلى الردّ عليه من فوره .

وهذا الضيق يتأكد من قوله بُعَيْد ذلك : « ففيئى إليك ولاتعجبى » ، إذ يأمرها أن تثوب إلى عقلها فلا تنطق بمثل هذه الملاحظات المؤلمة المثيرة لقديم الأشجان من ركودها .

ثم يعجبنى كذلك تصويره لوقعات المنون بصورة الإنسان الذى يأخذ شيئا ويذهب ، ثم يعود ليأخذ ماتبقًّى ، وذلك فى قوله :

أتيـــن علـى إخوتـــــى سبعـــةً وعُـــدْنَ علـــى رَبْعِـيَ الأقـربِ

ولاشك أن تفصيله بتحديد عدد إخوته الذين أتت عليهم وقعات المنون بسبعة وإضافته إلى ذلك ربعه الأقرب هو مما يجسّم مدى فداحة البلية . إن هذه التفصيلات لها دورها فى جودة الشعر وقوته .

وتنتهى الأبيات بهذه الصورة المؤثرة : صورته وقد غودر

وحيداً في الحياة وأصبح حاله كحال قرن الثور الأعضب . وتأثير هذه الصورة كامن أقوى مايكون في كلمة « الأعضب » ، التي توحي بأن وضع القرن الباقي هو وضع شاذ ، إذ ينقصه عديله ، بخلاف مالو قلنا مثلاً : « كقرن وحيد القرن » . إن وجه الشبه هنا ، كما هو هناك ، التفردُ . لكن شتان بين تفرّد وتفرّد : هذا تفردّ طبيعي لايثير وحشةً ولايوحي بفقدان . أما تفرّد صيصية الأعضب فهو تفردّ النقصان والتشويه والضعف والتضعضع .

واقرأ كذلك هذه الأبيات ، والضمير في الفعل « تذكّر » يعود إلى قلبه المذكور قبل ذلك :

تذكّر شيئا قد مضى لسبيله ... ومن حاجة المحزون أن يتذكّرا
نداماى عند المنذر بن محرّق ... أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفرا
كهولا وشبانا كأن وجوههم ... دنانير ممّا شيف في أرض قيصرا
إذا ملك من آل جفنة خاله ... وأعمامه آل امرىء القيس أزهرا
يردّ علينا كأسه وشواءه ... مناصفةً والشَّرْعَبِىّ المحبّرا
وراحا عراقيا وريْطاً يمانياً ... ومُعْتَبَطاً من مسك دارين أذفرا
أولئك أخداني مضوا لسبيلهم ... وأصبحت أرجو بعدهم أن أُعَمّرا
وماعُمُري إلا كدعوة فارطٍ ... دعا راعيا ثم استمر فأدبرا

وهي كذلك تنضح بالأسى واللوعة اللذين يحاول الشاعر أن يخففهما بالالتفات إلى الماضي ، عكس حركة الزمن في طريقه

بالبشر نحو الفناء ، وكأنه إذ يفعل ذلك إنما يفرّ من الموت . وهيهات ! ألا ما أشجى قوله : « ومن حاجة المحزون أن يتذكّرا » . ذلك أنه إذا ثقلت علينا وطأة الحاضر فإننا نعالجها باستحضار الذكريات البهيجة كنوع من المعادلة ، مثل من يسفّ بعض السكر ليطرد المرارة التى فى فمه .

وما أشجى كذلك الكناية فى قوله : « أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفراً » ، ومعناها بطبيعة الحال أنهم مدفونون تحت الأرض فى باطن الثرى . إلاَّ أنها ، إلى جانب هذا ، تومىء بأنه أخذ يتلفت حوله يمينا وشمالاً ويقطع الأرض ، الأرض كلها ، جيئة وذهاباً لعله أن يراهم فلايجد لهم من أثر .

وهنا يلتفت إلى الماضى هروباً من كابوس الحاضر المزعج ، وعندئذ تتبدل الحال غير الحال ، فيسود جوّ كله نشوة وحبور : إن أولئك الأصحاب كالدنانير ، بماتوحيه كلمة « الدينار » من النفاسة واللمعان . وهو ليس أى دينار . إنه دينار قيصرى ، ولكلمة « القيصر » ظلالها المعروفة من السطوة وسعة السلطان . ثم هذا الملك الذى « يردّ عليهم كأسه وشواءه مناصفة » . أى عزّ هذا ! إنه لايقدم لهم مجرد الطعام والشراب ، بل يمدّ إليهم الشراب من كأسه هو ، والشـواء من اللحم الذى يأكله هو ،

وفوق ذلك يقدمهما إليهم مناصفة لايؤثر نفسه عليهم بشيء . والشاعر حريص على أن يذكر نسب ذلك الملك : فأخواله آل جفنة ، وأعمامه آل امرىء القيس ، تانك الأسرتان المعروفتان بالعزّ والمجد والسلطان . ثم يمضى الشاعر فى تعداد الخِلَع والطُّرَف وصنوف الإكرام التى أتحفهم بها ذلك الملك الأثيل .

على أن الشاعر يعود من تطوافه بدروب الماضى الحالمة إلى أرض الحاضر فتعود معه الأحزان : لقد مضى أصحابه وتركوه . وهو ، بما رُكّب فيه من غريزة حب الحياة والأمل ، يرجو مع ذلك أن يطول عمره فلا يغادر الدنيا سريعاً كما فعلوا .

وتنتهى الأبيات بذلك البيت الذى لا أذكر أنى سبق أن لقيت مثله ، على الأقل فى شعر من تقدموا الجعدى :

وماعمرى إلا كدعوة فارطٍ دعا راعيا ثم استمرّ فأدبرا

والذى يصوّر فيه قصر الحياة بصورة دعاء من يتقدم الرعاة إلى الماء ليهيىء لهم الدلاء ويملأ الحوض بالماء أن « قد انتهيت من إعداد كل شىء » ثم يمضى ويتركهم . فكذلك العمر : صيحة فى القفر سرعان ما تضيع فى جنبات العدم ولايبقى منها ولا حتّى الصدى !

أمّا الأبيات التالية ، وهى فى الحسرة على انصرام الشباب وانصراف الغوانى عنه ، فتصوّر عجز الشاعر بين أمرين

مستحيلين . يقول :

تذكـــرت ذِكـرى من أميمة بعدما لقيتُ عنـاءً مـن أميمـة عانيا
فلاهـى ترضـى دون أمـرد ناشـىءٍ ولا أستطيـع أن أرد شبابيـا
وقــد طـال عهدى بالشباب وأهله ولاقيــتُ روعـاتٍ يُشِبـْن النواصيا
بـدت فعـل ذى ودّ ، فلما تبعتُها تولـت وأبقـت حاجتـى فـى فؤاديا
وحَلّـتْ سـواد القلب ، لا أنا باغيا سواهـا ولا عـن حبّهـا متراخيـا
ولـو دام منهـا وصلهـا ما قليتها ولكـنْ كَفَـى بالهجـر للحب شافيا
ومارابهـا مـن ريبـة غيـر أنها رأت لـمّتى شابـت وشـاب لداتيـا

وماذا يستطيع الشاعر ، أو يستطيع غيره ، فى هذا الموقف ؟ إن أميمة لاتريده إلا شابا نضرا ، وهو ببساطة يقول إنه لايستطيع أن يعيد نفسه شابا . ومن ذا الذى يستطيع ؟ لاأحد . ثم هو لايستطيع ألاّ يحبّها ، إذ الحب والكره لايخضعان لإرادة الإنسان بل هما شعوران يُفْرَضان عليه فرضاً ، وكذلك لايستطيع أن يستبدل بحبها حبّ غيرها . ومع ذلك فإنه يقول إن طول هجرها إياه وعدم مبالاتها به ويأسه منها ، كل ذلك قد أضعف مع الزمن حبّه لها . ثم يعود مرة أخرى فى ختام الأبيات إلى الإشارة إلى سبب هجرها له وأنه الشيب . وعودته إلى هذا الموضوع مرة أخرى تشى بإيلامه الشديد له وإلحاح ذلك الألم عليه . وبديع منه أن يذكر شيب لداته بجنب شيبه ، وكأنه يقول : « إذا كنت قد شِبْتُ فلم أشِبْ وحدى » ، محاولةً منه

للتعزّى ودرء الملامة عن نفسه ، إذ الشيب سنة الحياة لاينجو منه إنسان ، وليس أمراً إرادياً يمكننا أن نفعله أو نتركه .

وفى القصيدة ذاتها التى منها هذه الأبيات نقرأ له رثاءه فى أخيه ، ذلك الرثاء الذى يخلطه بشىء من الحكمة الممزوجة باللامبالاة بالمال ، إذ كل شىء زائل :

تلوم على هلك البعير ظعينتى	وكنتُ على لوم العواذل زاريا
ألم تعلمى أنى رُزِئْتُ بوَحْوحٍ	وكان ابن أمى والخليل المصافيا
فتىً كملت أخلاقه غير أنه	جواد فما يُبقِى من المال باقيا
فتىً تمّ فيه مايسرّ صديقَهُ	على أن فيه ما يسوءُ الأعاديا
يقول لمن يلحاه فى بذل ماله :	أأنفق أيامى وأترك ماليا ؟
يُدر العروق بالسنان ويشترى	من الحمد مايَبْقَى وإن كان غاليا
أشمّ طويل الساعدين سميدع	إذا لم يرُحْ للمجد أصبح غاديا
أتيحت له والغمّ يحتضر الفتى	ومن حاجة الإنسان ماليس لاقيا

ويعجبنى فى البيتين الرابع والخامس هذا الاستدراك الذى يوحى فى البداية أن الشاعر يريد أن يستثنى من شمائل أخيه الرفيعة عيباً يشذ عن تلك الشمائل ولاينسجم معها ، ثم يُفاجئنا بإضافة خط آخر من خطوط النبل والعتق فى شخصية ذلك الأخ . وهو مايسميه البلاغيون « المدح بما يشبه الذمّ » . وتأثير هذا الأسلوب هو فيما أشرت إليه من تلك المفاجأة وماتوقعه من دهشة منعشة على نفوسنا فى الوقت الذى نكون

فيه مترقبين لذكر مايسوء .

ولاشك أن إرداف الشاعر وصفه لأخيه بـ « ابن أمه » بقوله : « والخليل الصافيا » من الكلام الجميل ، إذ ما أكثر الإخوة الذين تنعدم بينهم المودة ، بل قد تكون بينهم من العداوات ما لا مثيل له بين الأخصام الألداء !

كذلك مما لاريب فيه أن قول أخيه : « أأُنفق أيامى وأترك ماليا ؟ » هو من اللفتات الذهنية والنفسية المبدعة : فهذا رجل قد استطاع أن يتعمق الحياة وأن يتغلب على ما غُرِس فى نفوسنا من حرص على المال ورغبة فى استبقاء أكبر قدر منه . إنه يرى أن عمره ذاهب ولايمكن استبقاؤه أبدا ، فيتساءل : ولِمَ أحاول استبقاء مالى إذا كنت عاجزا عن استبقاء عمرى ؟ أيكون مالى أعزّ على نفسى من حياتى ؟ ألا إن ذلك لايمكن أن يكون . ثم إنه يتصرف فى حياته على هَدْيٍ من هذا التفكير ولايبالى .

وقد أُخذ على الشاعر قوله عن أخيه : « إذا لم يَرُحْ للمجد أصبح غاديا » ، إذ يحكى الأصمعى أنه أنشد بعض أبيات هذه اليائية ومنها هذا البيت ، فتساءل الرشيد فى استنكار : « ويله ! ولِمَ لَمْ يُرَوّحْه فى المجد كما أغداه ؟ » (٤) ، وكأن

المسألة مسألة مزايدة يفوز فيها من يدفع أكثر . فإذا كان بعض الناس يقولون مثلاً : « إن فلانا إذا فاته فى آخر اليوم أن يأتى فعلا من أفعال المجد فإنه يبادر فى الغد إلى استدراك مافات » ، فأفضل منهم عندهم من يقولون عن ذلك الشخص : « إنه لايكف عن فعال المجد فى أى يوم لا صباحاً ولا مساء » . لا ، ليس الأمر كذلك ، وليس الشعر هو أن نبالغ فيما نقول . إن النابغة ، كما لاحظت فى شعره مرارا ، حريص فى كثير من الأحيان على الواقعية . ولاجرم أن الإنسان ، مهما يكن من نبله وأريحيته ، ليس آلة لإنتاج الخير لاتتوقف . وحتى الآلات كثيرا ماتكلّ وتحتاج إلى الصيانة والإصلاح ، فما بالنا بالبشر ؟ ثم إن قول النابغة عن أخيه إنه حريص على أن يستدرك فى أول فرصة فعل ما فاته ليوحى بشدة رغبته فى إتيان المكرمات . إنه بشر ، ولكنه فى نفس الوقت يعمل كل مافى وسعه للارتقاء ببشريته فى سلم المجد والنبل إلى أعلى درجة مستطاعة ؟ أما الرجل الذى لايتوقف أبدا عن صُنع المكارم ، كما هو فى خيال الرشيد ، فأين هو ؟

أما البيت الأخير فلعلّه كان قبله بيت ثم سقط أو أكثر . فالضمير فى « أتيحت له » لايجد مايعود عليه . ولعلَّ الشاعر

يقصد المنية أو حادثة أدت إليها . وقوله : « ومن حاجة الإنسان ماليس لاقيا » لايبدو له اتصال بماسبقه . وقد يكون المراد أن الإنسان يريد أن يبقى حيا أبد الدهر ولكنه لايمكنه ذلك .

ومما يعجبني كثيرا في شعر النابغة أيضا أبياته التالية في الحديث عن موقفه من الخليل الذى يغدر به . إنه إذا أحسّ فيه بما يريب لجأ في إصلاحه أوّلاً إلى العتاب . ثم إذا لجّ في التنكر للصداقة وقطَعه فما أسرعه هو بدوره إلى مقابلة القطيعة بمثلها ! إذ لايُعْقَل أن يداوم على حب من لايحبه :

وكان الخليل إذا رابني ... فعاتبتُه ثم لم يُعْتِبِ
هواى له وهوى قلبه ... سواى ، وما ذاك بالأصوبِ
فإني جرىء على هجره ... إذا ما القرينةُ لم تُصْحبِ(٥)
أدوم على العهد ما دام لى ... فإن خان خُنْتُ ولم أكذِبِ
وبعض الأخلاء عند البلا ... ء والرُزْءِ أروغُ من ثعلب
وكيف تواصل من أصبحتْ ... خلالتُه كأبى مرحب ؟
رآك ببثٍ فلم يلتفت ... إليك وقال : كذاك ادأبِ
ومانَحَنى كمِناح العَلُو ... قِ ما تَرَ من غِرّة تَضْرِبِ

إن الرجل هنا واقعي مثالي معا . إنه لايغدر بصديقه ولايبيعه في الشدائد رخيصاً ، ولكن ذلك الصديق إذا تغير قلبُه ولم ينفع فيه عتاب ولامراجعة فإنه قادر على قطعه ونبذه . إن الحياة عند النابغة أخذ وعطاء ، وهو لايقبل من ثمّ أن يعطى

بغير مقابل إلا اللوم والغدر . فإذا وجد أن من يهواه لايبادله مثل هواه فإن نفسه لاتطاوعه علِى الإبقاء على صداقته بل تنصرف عنه . وتأمّل كيف يسمّى هجره للصديق الخائن « خيانة » . إنها فى الحقيقة ليست كذلك ، ولكنه يجرى على ماسمّاه البلاغيون بعد ذلك بـ « المشاكلة » ، وكأنه يريد أن يقول : « لستُ أنا الذى يُغْدَرُ به ويُخَان ، بل أنا قادر على أن أخون » ، أو لعلّه يريد أن يبين لنا أنه قد آلم ذلك الصديق الغادر بنفس المقدار من الإيلام الذى سبّبه له ، ومن هنا يسمّى موقفه من خيانته هو أيضا خيانة . والطريف أن لسانه ، بعد هذا ، يفضحه فيقول عقيب ذلك : « ولم أكذب » . وباللّه كيف يخون الإنسان ويعترف بخيانته ثم ينفى عن نفسه مع ذلك الكذب ؟ لكنه لايصح ألاّ ننسى أنه فى تسمية موقفه من خيانة الصديق خيانة إنما جرى على الأسلوب العربى . وكأنه لمّا استعمل هذا الأسلوب عاد فأجفل وأحب أن ينفى عن نفسه ما يمكن أن يسبق إلى وهم الناس من أنه هو أيضا خائن ، فاحترز بقوله : « ولم أكذب » . أو قد يكون المعنى أنه إذا ثبتت له خيانة الصديق فإنه لايكذب نفسه ولايمنّيها الأمانى الباطلة من وراء صداقة هذا الصديق بل يبادر إلى قطعه فورا . يجوز هذا

ويجوز ذاك ، فإن البيت يقبل المعنيين جميعا (٦) .

وفى البيت الخامس تقع الموسيقى بين كلمتى « الأخلاّء » و « البلاء » موقع النسمة اللطيفة . كما أن عبارة « أبى مرحب » الدالة على المنافق الذى يتظاهر بمودتك وصداقتك ويبتسم فى وجهك إذا قابلك ويرحّب بك ترحيبا بالغاً ولكنه فى الأزمات روّاغ فرّار هى من العبارات الطازجة الموفقة ، وتبدو ذات مذاق شعبى . ولعلّهم حين سمّوه بـ « أبى مرحب » قد قصدوا أنه لايخرج من فمه (كما يخرج من صلب الرجل ذريته) إلا « مرحب ! مرحب ! مرحب ! » ، فهو « أبو » مرحب على هذا التقدير . وهناك تفسير لأبى مرحب بأنه الذئب (٧) . بيد أنه لايُضْرَب بالذئب المثل فى الروغان والغدر . إنما هو الثعلب . وقد سبق فى البيت المتقدم ذِكْرُ الثعلب بهذا المعنى ، فلا داعى فيما أظن لذكر الذئب .

وعندما يفخر النابغة بقومه ويهجو خصومهم فإنه يغلو غلوّاً غير قليل . وإذا صحّت إحدى الروايتين الأوليين لرائيته التى أنشدها على مسمع من النبى عليه السلام عام الوفود كان غلوّ الجعدى فى الإشادة بقومه قد بلغ غاية لم تُبْلَغْ من قبل (ولا من بعد فيما أحسب) ، إذ لم يكد يترك أحداً من قبائل

العرب إلاَّ وجلجل صوته بأن قومه قد هزموهم وقتلوهم وشرّدوهم :

ومهما يقل فينا العدوّ فإنهم ... يقولون معروفاً وآخر منكرا
فما وجَدَتْ من فرقة عربية ... كفيلاً دنا منّا أعزّ وأنصرا
وأكثر منّا ناكحاً لغريبة ... أصيبت سباءً أو أرادت تخيُّرا
وأجدر ألا يتركوا عانياً لهم ... فيغبر حولا في الحديد مكفّرا
وأجدر ألا يتركوا من كرامة ... ثويّا وإن كان الثّوايةُ أغضرا
وقد آنست منا قضاعةُ كالنّا ... فأضحوا ببصرى يعصرون الصنوبرا
وكندةُ كانت بالعقيق مقيمة ... وهندٌ فكُلاًّ قد طرحناه مطحرا
كنانةُ بين الصخر والبحر دارُهم ... فأحجرها أن لم تجد متأخّرا
ونحن ضربنا بالصفا آل دارم ... وحسّان وابن الجوف ضربا منكّرا
وعلقمةَ الجُعْفِيّ أدرك ركْضُنا ... بذى النخل إذ صام النهار وهجّرا
ضربنا بطون الخيل حتى تناولت ... عميدَىْ بني شيبان عَمْرًا ومنذرا
أرحنا مَعَدًّا من شراحيل بعدما ... أراها مع الصبح الكواكب مُظْهِرا
تمرَّنَ فيه المَضْرَحيّةُ بعدما ... رَوِينَ نجيعا من دم الجوف أحمرا
ومن أسدٍ أغوى كهولاً كثيرة ... بِنَهْي غراب يوم ما عوّج الذُّرا
ونحن أناس لانعوّد خيلنا ... إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
وما كان معروفا لنا أن نردها ... صحاحاً ولامستنكرا أن تُعَقَّرا
بلغنا السما مجدا وجودا وسؤددا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا
وكلَّ معدٍّ قد أحلّت سيوفنا ... جوانب بحرٍ ذى غوارب أخضرا
لعمرى لقد أنذرتُ أزدًا أُناتها ... لتنظر في أحلامها وتفكّرا
وأعرضتُ عنها حقبة وتركتُها ... لأبلُغ عُذْرًا عند ربى فأُعْذَرا
وما قلتُ حتى نال شَتْمٌ عشيرتي ... نُفَيْلَ بن عمرو والوحيدَ وجعفرا

وحـىّ أبـى بكـر ولا حـىَّ مثلُهـم	إذا بلـغ الأمـر الغَمـاسَ المذمّـرا

....

إذا افتخـر الأزدىّ يومـا فقـل له :	تأخَّـر فلـن يجعـلْ لك الله مفخرا

فـإن تَـرِدِ العُلْيـا فلسـت بأهلهـا	وإن تبسـط الكفيـن بالمجـد تُقْصَرَا

إذا أدلـج الأزدىّ أدلـج سارقـا	فأصبـح مخطومـاً بلـؤم معـزّرا

وبالمناسبة ، فقد اخترت الرواية الثانية . ولو كنت اخترت الأولى لكانت قعقعة الفخر أدوى وأعنف تفجُّرا . وإن الإنسان ليتساءل : ماذا كان قوم النابغة يظنون أنهم قد جاءوا إلى النبى ليفعلوا ؟ لقد جاءوا ليعلنوا إسلامهم لا ليهددوا ويقعقعوا . ولكن هكذا كانت طبيعة العرب ، بل ومازالت كذلك للأسف . وإن الأغانى والأناشيد التى تبثها الإذاعات العربية الآن فى الافتخار بالبطولات وتهديد الأعداء خير دليل على ذلك ، مع مانعرفه نحن العرب قبل غيرنا من هواننا وعجزنا وذلتنا وخزينا وضراعتنا أمام أعدائنا وبلادتنا نحو الإهانات الشنيعة التى توجه لأوطاننا وأعراضنا وديننا . ولكن النبىّ الكريم قد قابل كل ذلك من الشاعر بصدره الواسع وحلمه الكريم وفهمه العميق للطبيعة العربية . وحين وصل النابغة إلى أقصى نقطة فى الفخر المدمدم بقومه قائلاً :

بلغنـا السمـا مجـدا وجودا وسؤددا	وإنـا لنبغـى فـوق ذلـك مظهـرا

كان كل ما عقب عليه السلام به على ذلك أن سأله : « إلى أين

المظهر يا أبا ليلى ؟ » ، وكأنه عليه السلام يريد أن ينبهه إلى أنه لاغاية لأحد بعد هذه الغاية ، إذ ماذا بعد السماء ؟ ولكن الشاعر اللبق سرعان ما أجاب محوّلا وجهة الكلام إلى الآخرة بعد أن كان فى الدنيا ، فقال : « إلى الجنة يارسول اللـه » . فدعا لـه الرسول بالخير بعد أن نبهه أن يقول : « إن شاء اللّـه » .

هذا ، وقد مضت أبياته فى مديح ابن الزبير فى الفصل السابق . ويبقى من الحديث عن الأغراض الشعرية عند النابغة الميمية المنسوبة إليه ومطلعها :

الحمـد للّـه لاشريـك لـه ... من لـم يقلهـا فنفسه ظَلَما

والتى جُمعت من المظانّ المختلفة فبلغت واحداً وعشرين بيتا . وهى غريبة على شعر النابغة الذى سَلِم لنا ، إذ كلها فى المعانى الدينية من توحيد للّه واعتراف بقدرته وعظمته ، وتأمل فى مجالى السماوات والأرض ومعجزة الخلق والحياة والنموّ ، وتذكيرٍ بمصائر بعض الأمم ممن أهلكهم اللّه وكانوا أقوى قوة وصولة وغنى أو أرغم أنوفهم وأخضعهم للعرب ، وخوفٍ من الحساب والنار ، وحكايةٍ لقصة نوح ، وإن ضاع معظم الأبيات التى تتضمنها ولم يبق منها إلا بيتان هما آخر بيتين فى القصيدة .

والقصيدة فوق ذلك أقرب إلى النظم منها إلى النثر ، وإن

كان د. شوقى ضيف يصفها بأنها « موعظة بليغة » (٨) .

وقد اخْتُلِف حول نسبة هذه القصيدة (٩) ، فنسبها بعضهم إلى أمية بن أبى الصلت ، وبعضهم إلى النابغة الجعدى ، وبعض آخرون إلى نابغة بنى شيبان . وفى الفصل التالى نتناول هذه المسألة .

الهوامش

١- انظر مقدمة « شعر النابغة الجعدى » / ج - د .

٢- انظر مثلا ابن سلام / طبقات فحول الشعراء /١/ ١٢٨ ، والمرزبانى / معجم الشعراء / تحقيق عبد الستار أحمد فراج / البابى الحلبى / القاهرة / ١٩٦٠ م / ١٩٥ .

٣- للدكتور خليل إبراهيم أبو ذياب رأى مختلف فى وصف النابغة للخيل . وقد أطال القول في ذلك . انظر كتابه « النابغة الجعدى - حياته وشعره » / ٢٢٣ ومابعدها .

٤- المرزبانى / الموشح / ٩٣ . وانظر « شعر النابغة الجعدى » / ١٧٥ / هامش ٢٨ .

٥- إذا النفس لم ترتح إليه .

٦- هناك رواية أخرى للشطرة الثانية من البيت فى « لسان العرب » كالآتى : « إذا كَذَبَتْ خُلَّةَ المِخْلَبِ » . والمخلب : الناقة . وكذبت خلتها : ذهب لبنها . انظر « شعر النابغة الجعدى » / ٢٥ / هامش ٤٢ . ولكنى أخذتُ بالرواية المثبتة في القصيدة ، لأنها من رواية البحترى فى « حماسته » . انظر تخريج القصيدة فى ص / ١٢ بالهامش ، والبحترى أسبق من « لسان العرب » بكثير ، علاوة على أن تسمية لبن الناقة بالخلة مما لايسوغ .

٧- انظر « شعر النابغة الجعدى » / ٢٦ / هامش ٤٤ .

٨- العصر الإسلامى / ١٠٣ .

٩- القصيدة موجودة فى « شعر النابغة » / ١٣٢ - ١٣٤ .

تحديد نسبة قصيدة « الحمد لله لاشريك له»

ورد في « طبقات فحول الشعراء » أن النابغة الجعدى لمّا أذن له عثمان أن يعود إلى بلاده على أن يرجع مرة أخرى إلى المدينة بعد أجلٍ أجَّله له « خرج من عنده فدخل على الحسن بن على فودّعه ، فقال له الحسن : أنشدنا من بعض شعرك فأنشده :

الحمد لله لاشريك له من لم يقلها فَنَفْسَهُ ظَلَما

فقال له : يا أبا ليلى ، ماكنا نروى هذه الأبيات إلا لأميه بن أبى الصلت . قال : يا ابن رسول الله ، والله إنى لأول الناس قالها ، وإن السروق من سرق أميّةَ شعره » (١) . وفى « الاستيعاب » لابن عبد البرّ أن هذه القصيدة بما فيها من ضروب دلائل التوحيد والإقرار بالبعث والجزاء والجنة والنار وصفة بعض ذلك تنحو نحو شعر أمية بن أبى الصلت . وزاد ابن عبد البر أنه « قيل إن هذا الشعر لأمية ، ولكنه صححه يونس بن حبيب وحماد الراوية ومحمد بن سلام وعلى بن سليمان الأخفش للنابغة الجعدى » (٢) . كما ورد فى « الأغانى » و « الخزانة » أن النابغة قد قال هذه القصيدة فى الجاهلية (٣) .

كذلك فإنها موجودة فى ديوان النابغة الشيبانى ، الشاعر الأموى .

فما وجه الصواب فى ذلك كله ؟

أوّلاً أحب أن أؤكد أن هذه القصيدة لايمكن أن تكون جاهلية لأكثر من سبب : فمعانيها كلها تقريبا وكذلك كثير جدا من ألفاظها وعباراتها قرآنية ، فكأن الشاعر قد وضع القرآن نصب عينيه وأخذ بعض آياته وصاغها شعراً . ولو كانت القصيدة جاهلية فمعنى ذلك ببساطة أن القرآن قد اقتبسها وأدخلها فى آياته بعد أن نثرها ، وهو مالايمكن أن يكون . ولست أقول هذا لمجرد أننى مسلم يعزّ علىَّ أن أسلّم بهذا حتى لا أسىء إلى كتابى المقدس ، ولكن لأن هذا لو حدث لثارت ثائرة الكفار وارتجت الجزيرة العربية كلها لأنه سيكون دليلاً قاطعاً على أن محمداً كان يستمد قرآنه من كلام البشر . إن كل ما اتهم الكفار به الرسول عليه السلام فى هذا الصدد أنه كان يستمع إلى بعض الرقيق الأعجمى فى مكة ويضمّن مايتعلمه منهم فى القرآن ، ولم يذكروا النابغة ولا أمية قط . ثم أكانت نفس النابغة تطاوعه على الدخول فى الإسلام وهو يرى قصيدته قد أُخذت وادُّعِى أنها وحى إلهىّ . بل إننى قد بينت من قبل أن من

المستبعد للغاية أن النابغة كان فى الجاهلية متحنفا على دين إبراهيم يستغفر الله ويصوم ويتجنب الخمر والأوثان ، ومن ثم فهذا الشعر غريب عليه آنذاك . أما لو كانت الأبيات لأمية فلا ريب أنها كانت ستصبح فرصة العمر لهذا الرجل الحاقد على الرسول لنزول الوحى عليه بدلاً منه كما كان يطمع ويتوقع ، ولكان قد شنّ حرباً على الرسول ودينه لا ترحم (٤) .

هذا سبب ، والثانى أن فى القصيدة عدداً غير قليل من أسماء الله الحسنى وصفاته مما لم يكن للجاهليين عهد ببعضه . وهى « المولج الليل فى النهار ... ، والخافض ، الرافع ، الخالق ، البارىء ، المصوّر ... » .

وثمة سبب آخر قاطع فى أنها لايمكن أن تكون جاهلية البتة ، بل ولايمكن أن يكون قد قالها أمية ، وهو أن فيها ذكراً لفتح بلاد فارس وخضوعهم لسلطان العرب . وهذا الحدث لم يقع بطبيعة الحال إلا فى عهد عمر بن الخطاب ، وقد مات أمية قبل ذلك بزمن طويل (٥) . تقول القصيدة :

يا أيها الناس ، هل ترون إلى فارس بادت وخدّها رَغِما ؟
أمسوا عبيدا يرعون شاءكم كأنما كان ملكهم حُلُما

إذن فالقصيدة قد قيلت بعد الإسلام لاجدال فى ذلك ، وبالتالى لايمكن أن تكون لأمية ، فهل يمكن أن يكون صاحبها

هو النابغة الشيبانى ؟

إننى أستبعد هذا جدا . ذلك أن هذه الإشارة إلى زوال ملك فارس وعلى هذا النحو الذى فى القصيدة ينمّ عن أن العرب كانوا لايزالون به حديثى عهد ، فالشاعر يتحدث عنه حديث المبهور . وهذا أمر طبيعى ، فقد اشترك النابغة فى فتح فارس ، ورأى بنفسه كيف انهارت الإمبراطوية الفارسية تحت الضربات الإسلامية وخضع الفرس للعرب بعد أن كانوا هم السادة أصحاب السلطان . أما فى عصر نابغة بنى شيبان فكان قد مضى على ذلك زمن طويل ولم يعد العرب يرون فيه شيئاً غير عادى ، فقد اتسعت إمبرطوريتهم شرقا وغربا واكتسحت البلاد والأمم ، وأصبح فتح فارس من ذكريات الماضى . إن من الطبيعى أن يشير نابغة بنى شيبان ، أثناء مديحه للوليد بن عبدالملك ، إلى فتح طرندة فى آسيا الصغرى مثلا فى عهد ذلك الخليفة الأموى ويتحدث عن الروم (٦) ، لكن ليس من الطبيعى أن يترك أحداث عصره ويذهب يتحدث عن القضاء على دولة الأكاسرة .

ثم إن نظم آيات القرآن على هذا النحو يدل هو أيضا على أن نزول القرآن كان لايزال غضّا . إن الشعراء العرب لم يكفوا على طول الأعصار عن الاقتباس من القرآن الكريم ، لكن ليس

بهذا الالتصاق بألفاظه وعباراته ومعانيه .

وإلى جانب هذا ، فإن أقدم مؤرخى الأدب العربى كابن قتيبة وابن سلام والأغانى قد ذكروا هذه القصيدة للنابغة الجعدى لا للنابغة الشيبانى . وقد أخذ الدارسون المحدثون بهذه النسبة ، ولم أجد أحداً من الذين رحعت إليهم وأنا بصدد إعداد هذه الدراسة قد ذكرها لنابغة بنى شيبان ، اللهم إلاَّ د. سامى مكى العانى ، الذى جعلها له فى كتابه « الإسلام والشعر » (مع القول فى الهامش إنها منسوبة إلى الجعدى فى « الشعر والشعراء ») ، ثم عاد فى نفس الكتاب فنسبها دون تردد إلى نابغة بنى جعدة دون أن يشير إلى النابغة الشيبانى أدنى إشارة (٧) .

الهوامش

١- طبقات فحول الشعراء / ١ / ١٢٧- ١٢٨ . وقد ورد هذا الخبر بنصه تقريباً فى « الأغانى » ٤ /١٣٠ ، إلا أنه فيها قد دخل على الحسن والحسين لا على الحسن وحده .

٢- الاستيعاب / ٣ / ٥٥٣ . وانظر أيضا البغدادى / خزانة الأدب / ٥١٤ .

٣- نفس الموضعين فى الهامشين السابقين .

٤- وأيضا لايمكن أن يكون قد قالها بعد الإسلام ، وإلا لكان معنى ذلك أن هذا الحاقد الذى كان يتأجج بغضا للرسول ودينه قد طاوعته نفسه للتأثر بالقرآن الذى نزل على الرسول والاقتباس منه بهذه السعة وهذا الالتصاق في قصيدة من قصائده ، بكل مايدل عليه هذا للقاصى والدانى من اعترافه بعظمة ذلك القرآن إلى حدّ أن يتخذه هو ، أمية بن أبى الصلت ، مثلاً أعلى له يأخذ منه ويستلهمه .

٥- مات فى السنة الثانية أو التاسعة للهجرة . انظر البغدادى / خزانة الأدب /١ / ١٢١ - ١٢٢ .

٦- ديوان نابغة بنى شيبان / دار الكتب المصرية / ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م / ٥٢ -٥٣ .

٧- انظر « الإسلام والشعر » / عالم المعرفة (٦٦) / الكويت / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م / ٨٧ ، ٢٥٢ .

الرأى فى شعر النابغة

وصف يونس النابغة الجعدى بأنه « أفصح العرب » وأنه « أوصف الناس لفرس » (١) .

وعن أبى عمرو بن العلاء : « سئل الفرزدق عن الجعدى ، فقال : صاحب خُلْقان : يكون عنده مُطْرف بألف ، وخمار بواف (٢) . قال الأصمعى : وصدق الفرزدق . بينا النابغة فى كلام أسهل من الزلال وأشد من الصخر إذ لان فذهب . ثم أنشدنا له :

سما لك همٌّ ولم تَطْرَبِ   وبِتَّ ببثٍّ ولم تَنْصَبِ
وقالت سليمى : أرى رأسه   كناصية الفرس الأشهب
وذلك من وقعات المنون   ففيئى إليك ولاتعجبى
أتين على إخوتى سبعة   وعُدْنَ على رَبْعِيَ الأقربِ

وبعده أبيات . ثم يقول بعدها :

فأدخلك الله برد الجِنا   ن جذلان فى مدخلٍ طيّبٍ

قال الأصمعى : وطريق الشعر إذا أدخلته فى باب الخير لان . ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا فى الجاهلية والإسلام ، فلما دخل شعره فى باب الخير من مراثى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهم وغيرهم لان شعره . وطريق الشعر هى طريق الفحول ، مثل امرىء القيس وزهير

والنابغة ، من صفات الديار والرَّحْل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والافتخار . فإذا أدخلته فى باب الخير لان » (٣) .

وقال الأصمعى أيضا فى نفس هذا المعنى الأخير : « الشعر نَكِدٌ بابه الشرّ ، فإذا دخل فى الخير ضعف . هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره . وقال مرة أخرى : شعر حسان فى الجاهلية من أجود الشعر ، فقُطِع متنه فى الإسلام لحال النبى صلى الله عليه وسلم » (٤) .

وكان الأصمعىُّ يحكم على النابغة بقلة التكلف ويمدحه لهذا السبب (٥) .

وعن الأصمعى أيضا أنه قد أُفْحِم ثلاثين سنة بعد قوله الشعر ، ثم نبغ فقال الشعر مرة أخرى ، وأن شعره الأول قبل الإفحام جيد ، أما الآخر فكأنه مسروق وليس بجيد (٦) .

ووضعه أبو زيد القرشى على رأس أصحاب المشويات (٧) .

كما أورد ابن قتيبة له شيئين سبق إليهما وأخذهما عنه غيره ، إذ قال فى وصف الفرس :

كأن مقطّ شراسيفه ... إلى طرف النَّقْب فالمَنْقبِ
لُطِمْنَ بتُرسٍ شديد الصفا ... ل من خشب الجوز لم يُثْقَب

فأخذه ابن مقبل فقال :

كـأن ما بين جنبيه ومَنْقَبه ... من جوْزِه ومناطِ القُنْبِ ملطومُ
بتُرسِ أعجمَ لم تَنْخر مناقبُه ... مما تخيَّر فى آطامها الرومُ

وقال النابغة :

أرأيت إن بكرت بليلٍ هامتى ... وخرجت منها باليا أوصالى
هل تَخْمِشَنْ إبلى علىَّ وجوهها ... أو تضربَنْ نحورها بمآلى

فأخذه شاعر وقال :

أرأيت أن بكرت بليل هامتى ... وخرجتُ منها باليا أثوابى (٨)

وأضاف أبو الفرج عن الأخفش أن النابغة هو أول من سبق إلى الكناية عن اسم من يَعْنِى بغيره ، فإنه قال :

أكنى بغير اسمها وقد علم الـ ... ـله خفيات كل مكتتمِ

وأن الشعراء اتبعوه فيه ، ومنهم أبو نواس حيث يقول :

أسأل القادمين من حكمان ... كيف خلّفتمو أبا عثمان ؟
فيقولون لى : جنان كما سرّك فى ... حالها ، فسل عن جنان
مالهم لابارك الله فيهم ؟ ... كيف لم يغن عنهمو كتمانى ؟ (٩)

وجعله ابن سلام على رأس الطبقة الثالثة من فحول الجاهلية ، ووصفه بأنه كان « شاعرا مفلقا » ، ثم عاد فقال إنه كان « مختلف الشّر مغلّبا » ، ثم ساق رأى الفرزدق السابق ذكره ولكن بصيغة مختلفة بعض الشىء قائلاً : « كان الأصمعى يمدحه بهذا وينسبه إلى قلة التكلف » ، كماذكر أن ليلى الأخيلية وأوس بن مغراء القُرَيْعى وعقال بن خالد العُقَيْلى قد غُلِّبوا عليه : الأولان

بالشعر ، رغم أن أوساً أقل شاعرية منه ، والثالث بكلام عادى ، إذ كان مفحما لايقول الشعر (١٠) .

وجاء فى « الأغانى » أيضا عن عمر بن شبة أنه كان « شاعرا متقدماً ، وكان مغلَّبا ما هاجى قطّ إلا غُلِب : هاجى أوس بن مغراء وليلى الأخيلية وكعب بن جُعَيْل فغلبوه جميعا » (١١)

وقد أورد المزربانى بعض المآخذ التى عيبت على شعر النابغة . فإلى جانب الملاحظة السابقة التى أبداها الرشيد حول قوله عن أخيه إنه « إذا لم يرح للمجد أصبح غاديا » وأنه كان المفروض أن يقول بدلاً من ذلك : « إذا راح للمعروف أصبح غاديا » ، مما وافقه عليه الأصمعى قائلاً : « أنت والله يا أمير المؤمنين فى هذا أعلم منه بالشعر » ، هناك ما أنكره آخرون على الشاعر من قوله :

وشمولٍ قهوة باكرتُها ... فى التباشير من الصُّبْحِ الأُوَلْ

إذ إنه أراد « مع التباشير الأول من الصبح ، فقدم وأخّر » ، وكذلك قوله يصف انصراف امرأةٍ عنه :

ومارابها من ريبة غير أنها ... رأت لِمَّتى شابت وشاب لداتيا

فقد قالوا مستنكرين : « فأى ريبة أعظم من أن قد رأته شاب ؟ » (١٢) .

وفى « المصُون فى الأدب » ، فى أثناء الكلام عن أمدح

بيت قالته العرب ، سيق رأى يقول إنه بيت النابغة فى رثاء أخيه :

فتـى تـمّ فيـه مايسـرّ صديقـه ... علـى أن فيه مايسوء الأعاديا (١٣)

ولكن دون أن تساق حيثيات هذا الحكم .

وقد صنفه جرجى زيدان ضمن طائفة الشعراء الذين اشتهروا بوصف الخيل دون سواها كما يقول ، وهم النابغة نفسه وأبو دواد الإيادى وطفيل الغنوى (١٤) .

وقال أحمد السكندرى ومصطفى عنانى إن النابغة لم يكن يُشَقّ له غبار فى وصف الخيل وإنه كان مطبوعاً فى الجاهلية والإسلام ، وقارنا بينه وبين زهير ومدرسته من المحكِّكين فقالا إنه لم يكن ينتحى طريقتهم فى المبالغة « فى تهذيب الألفاظ وتنقيح المعانى ، بل كان يلقى القول على عواهنه وكما تهديه إليه بديهته ، فتارة يأتى جيدا متينا ، وتارة يجىء ضعيفا رديئا ، وأحيانا يسلك بين ذلك سبيلاً » . ثم قالا « ، ومع ذلك كله كان مغلَّبا ، ماهاجى أحداً إلا غلبه » (١٥) .

وقد أشار أيضا إلى تقدمه فى وصف الخيل السيد أحمد الهاشمى ، الذى ذكر قول الأصمعى إن هناك « ثلاثة يصفون الخيل لايلحقهم أحد : طفيل الغنوى وأبو دواد الإيادى والنابغة الجعدى » ، كما وصفه بأنه كان « شاعرًا مطبوعاً فى الجاهلية والإسلام » (١٦).

ويصف د. شوقي ضيف أكثر من قصيدة له بأنها « رائعة » (١٧) ، كما مرّ بنا وصفه لميميته المختلف حول نسبتها بأنها « موعظة بليغة » (١٨) . كذلك ذكر الأستاذ الدكتور ما قيل عن غلبة عدد من الشعراء للنابغة رغم أنهم لم يكونوا على مستواه فى موهبة الشعر ، وإن كان قد جوّز أن يكون سبب ذلك « تعمق الإسلام فى نفسه ... ، إذ كان يتحرج من المضى فى الهجاء المقذع » (١٩) . وعلى طول الفصل الذى خصصه له نراه يعمل على إبراز أثر الإسلام فى شعره .

والنابغة ، عند د. عمر فروخ ، هو « شاعر مخضرم مطبوع فصيح يجرى فى شعره على السليقة ولايتكلف صنعة ، إلا أن شعره شديد التفاوت : منه الجيد البارع ، ومنه الردىء الساقط ... وكان من أوصف الناس للفرس ... وفى شعره شىء من الإقذاع ... وتكثر فى شعره الألفاظ الإسلامية » (٢٠) .

وفى « أدب صدر الإسلام » للدكتور محمد خضر نقرأ أنه كان « يقول الشعر عفو الخاطر ولا يعنى بتهذيبه وتزيينه ، فكان منه الجيد والردىء ، ولذا كان من الشعراء المغلَّبين ... وكان سمحاً يعترف بالهزيمة ولايضمر فى نفسه شرًا ولاحقداً » (٢١) .

ويشير حنا الفاخورى إلى شهرة النابغة بوصف الخيل ، ويقول

إنه كان « شاعرا مطبوعا يرسل كلامه إرسالا من غير تأن ولاتنقيح ، ولهذ حوى شعره الجيد زالردى . ويمتاز كلامه عموماً بالموسيقى العذبة والسلاسة والانسجام » (٢٢) .

ويوجز د. خليل إبراهيم أبو ذياب ، فى نهاية دراسته المفصلة لحياة النابغة وشعره ، رأيه فى هذا الشعر قائلا إننا « إذا رجعنا إلى ما بين أيدينا من شعر الجعدى فإننا نستطيع أن نتلمس آثار الجمال ونتحسس مظاهر الإبداع والجزالة والرصانة والفحولة تشيع فى قصائده بكل وضوح ، حتى إنها تشكل السمة الغالبة عليها » (٢٣) .

هذه آراء بعض النقاد والعلماء فى شعر النابغة فى القديم والحديث ، ويمكن تلخيصها فيما يلى :

أن النابغة أشعر ، أو على الأقل من أشعر ، من وصفوا الخيل .

أن شعره متفاوت . وقد عزا الأصمعى ذلك إلى أن شعره الذى قد يكون سلساً أو صلبا حسب الموضوع المطروق ما إن يدخل فى باب الخير حتى يضعف ويلين . ثم خرج الأصمعى من ذلك إلى القول بأن هذا الحكم ينطبق على شعر المخضرمين فى الإسلام .

أنه كان شاعرا متقدما ومفلقا ، ومع ذلك كان مغلَّبا . وقد

رأينا كيف جوّز د. شوقى ضيف أن يكون مرد ذلك إلى أن الإسلام كان يمنعه من المضى فى الهجاء المقذع .

أنه كان شاعرا مطبوعاً فى الجاهلية والإسلام .

أنه لم يكن يهتم بتهذيب الألفاظ وتنقيح المعانى ، فهو ليس من شعراء الصنعة . ويُرجع بعضهم إلى ذلك ما قيل عن غَلَبه أمام من دخل معهم فى مهاجيات .

أن شعره يمتاز بالموسيقى العذبة والسلاسة والانسجام .

أنه سبق إلى بعض المعانى والصور التى قلده فيها من جاءوا بعده .

أنه قد أُخذت عليه فى شعره أشياء .

وسوف نتناول الآن هذه الآراء بالدرس والتحليل . وبالنسبة لوصفه للخيل فقد سبق أن بيّنت رأيى فيه مما يغنينى عن إعادة القول فيه هنا .

وأمّا أن شعره وشعر غيره قد لان فى الإسلام فهذه مسألة لابد من التلبث فى معالجتها لأهميتها الشديدة .

لقد قيل فى موقف الإسلام من الشعر كلام كثير فى القديم والحديث ، وانتهى رأى العلماء ومؤرخى الأدب والنقاد بوجه عام إلى أن الإسلام لايقف من الشعر موقف عداء ، بل ينظر إلى

مضمونه وغايته ، وعلى حسبهما يكون الحكم له أو عليه . إنه يحرّم مثلا أشعار الفجور والفحش والحض على حرب الله ورسوله ، ولكنه لايحرّم التعبير عن المشاعر الإنسانية السوية ... وهكذا . وهذه مسألة قد فُرغ منها تقريبا (٢٤) . بيد أن الأمر فيما يتصل بمقولة ضعف الشعر فى الإسلام مختلف ، إذ لا يزال عدد من الدارسين يردّدونها ، وإن أضافوا أسباباً أخرى إلى ما قاله الأصمعى من أن الشعر إذا دخل فى الخير لان ، لأنه فن نكد لايزدهر إلا على الشرّ . ومن هؤلاء د. نجيب البهبيتى ، الذى يدعى « أن ضعف الشعر فى الإسلام نظرية صحيحة » ، ويذهب فيحاول التدليل على ذلك (٢٥) ، ود. محمد عبدالعزيز الكفراوى ، الذى يقول « لعل روح الدين الجديد الذى ينهى عن التعظم بالآباء ويحرم الخمر وينفّر من التعرض لأحساب الناس بالهجاء وأعراضهم بالتشبيب ... كان سببا فى ضعف الشعر العربى بضعف الدوافع إليه » ، وإنَّ حرص المسلمين الأوائل على العمل قد صرفهم عن قول الشعر ، وإن القرآن قد شغلهم بأسلوبه ومضمونه عن التفكير فى سواه ، ومنعهم من محاولة محاكاته (٢٦) .

ويقرر د. عبدالقادر القط فى هذا الصدد أننا « لو قارنّا بين شعر هذه المرحلة (أى مرحلة صدر الإسلام) والشعر الجاهلى

لأدركنا دون عناء أن هناك بونا شاسعاً بين الشعرين من حيث الأصالة والمستوى ، وأن الشعر فى صدر الإسلام قد فقد فى معظمه ، وبخاصة الشعر السياسى ، ما فى الشعر الجاهلى من خيال حىّ واقتدار لغوى والتصاق بالطبيعة والمزاوجة بينها وبين مشاعر الإنسان ، وأنه فى كثير من وجوهه قد أصبح أقرب إلى النظم منه إلى الإبداع » ، وإن سارع إلى الاستدراك بأن هذه الظاهرة كانت أوضح ماتكون فى شعر المناقضات بين الإسلام والكفر ، أما « الذين كانوا أقل انغماساً فى تلك الحرب الكلامية فإنهم ... مضوا يقولون الشعر كما كانوا يقولونه فى الجاهلية على شىء من الاختلاف اليسير كان لابد أن يكون وهم يعيشون فى ذلك المجتمع الجديد » . ثم يستدرك الأستاذ الدكتور مرة ثانية بأن ذلك الضعف كان قد بدأ فى الحقيقة قبيل الإسلام لابعده ، إذ كان عصر الفحول قد انقضى تقريبا ولم يبق إلا شعراء مقلون لايبلغون شأوهم (٢٧) .

ومن الذين قالوا أيضا بضعف شعر المخضرمين د. عمر فروخ ، الذى يرى « أن إنعام النظر فى أسلوب شعر المخضرمين يدلنا على أن الجانب الأقل منه كان قد بقى على نسجه المتين كشعر الحطيئة وبعض شعر حسان . أما الجانب الأكبر منه فقد

أصبح أضعف نسجا وأقل براعة وأكثر تخلخلا لضيق المجال الوجدانى الذى كان للجاهليين من قبل . لمّا نهى الإسلام عن المفاخرات والمنافرات ووَزَعَ عن الغزل والهجاء، وثبّط عن المبالغة والمغالاة فقد الشعراء الميادين الرحيبة التى كانوا يُجرون فيها ألسنتهم فى الجاهلية ، ثم ذهبت القيود الجديدة بالطرق المعبّدة التى كان الشعراء يسلكونها فى الجاهلية ، وخصوصاً حينما جعل المخضرمون يتكلفون شق طرق جديدة ينهجون عليها فى نظم الأغراض المستحدثة » (٢٨) .

ويعزو د. عباس الجرارى ظاهرة ضعف الشعر الإسلامى المدّعاة إلى « أن الأديب لايستطيع أن ينتج فى حال التوتر والانفعال ، وإن فعل يكون إنتاجه غير ذى قيمة ، وإن تأثر فتأثيره وقتى ليس غير . والسبب أنه لايستطيع الإنتاج الجيد إلا بعد أن تهدأ ثورته وتختمر تجربته ويكتمل شعوره ويتعقل وجدانه » . وهو يرى أن شعراء الإسلام « لم يتح لهم ، وخاصة فى السنوات الأولى ، وتعتبر سنوات انتقالية ، أن يتأثروا تأثرا نفسيا وعقليا يكون من العمق بحيث يغير وضعية الشعر شكلا ومضموناً وبحيث يجعل الشعراء يعبرون فى جودة وإبداع عن تفاعلهم مع الدين وانفعالهم به » (٢٩) .

والدكتور عبدالحليم حفنى هو أيضا من الذين تعرضوا لهذه القضية . وقد جاءت دراسته لها مفصَّلة ، وكان رأيه أن الشعر قد ضعف فعلاً فى الإسلام ، وساق عدة أسباب لذلك . ثم انتهى إلى أن هذه الأسباب تعود جميعا إلى أن طبيعة الشعر تختلف عن طبيعة الإيمان ، إذ الإيمان يقوم على الاستقرار ، أما الشعراء فهم كلَّ وقت فى حال ، ولابد لهم حين يشعرون أن يكونوا دائما محلقين مطوفين متقلبين بين أجواء الخيال وأفانين التصوير (٣٠) .

وترى سلمى خضراء الجيوسى أن الشعر فى صدر الإسلام أضعف منه فى الجاهلية وفى العصر الأموى معاً . وهى ترد ذلك إلى التغييرات التى جاء بها الإسلام فى المبادىء والأفكار والتى لم يستطع العرب ، وبخاصة الشعراء منهم ، أن يستجيبوا لها عاطفيا كما ينبغى ، وإلى أنه كان من الصعب على الشعر أن يغير من تقاليده بالسرعة المطلوبة . وهى تؤكد أن شعر حسان الإسلامى ، عدا القصائد الهجائية ، يفتقر إلى تلك الحرارة اللاهبة التى كانت فى شعره قبل ذلك (٣١) .

وهناك غير هؤلاء قالوا بمثل قولهم أو بشىء منه قريب ، ومنهم د. يوسف خليف (٣٢) ، ود. محمد إبراهيم جمعة (٣٣) ،

ود. محمد طاهر درويش (٣٤) ، ود. محمد عبد المنعم خفاجى (٣٥) ، وكذلك المستشرق غوستاف فون غرونباوم (٣٦) .

هذه هى مقولة الأصمعى ، وهذه أصداؤها . والطريف أنه قد رُوِىَ للأصمعى نفسه رأي آخر فى شعر حسان بن ثابت يناقض مقولته تلك . قال : « حسان أحد فحول الشعراء » فاعترض عليه أبو حاتم بأن له أشعاراً ليّنة ، فرد عليه الأصمعى قائلا : « تُنسَب له أشياء لاتصح عنه » (٣٧) . كما أن آراء الأصمعى فى النابغة ، حسبما وصلت إلينا ، هى أيضا مضطربة كما هو واضح مما نقلناه عنه فيما مرّ .

على أية حال ، هذه المقولة تحتاج إلى أن نتناولها بالنقاش نظراً لخُطورة القضية التى أثارتها . ونبدأ بالناحية النظرية : لقد ظن الأصمعى أن الشعر نكد لايزدهر إلاّ إذا تناول موضوعات الشر ومعانيه . وهذا كلام ملقى على عواهنه ليس عليه من دليل . والعبرة فى الحقيقة بموهبة الشاعر واستعداده النفسى واحتشاده وحسن اختياره للوقت وللظروف التى يقبل فيها على القصيدة . وكم من شعر دينى قد بلغ الروعة فى الجمال والتأثير والامتياز ! وكم من شعر قيل فى الهجاء المقذع أو الإثارة الجنسية المفحشة وفشل فشلاً ملحوظاً ! ثم لقد عدّ الأصمعى مراثى حسان فى الرسول

عليه السلام وصحابته من ذلك اللون من الشعر الذى لم ينجح فيه الشاعر لدخوله كما قال فى باب الخير . ولاندرى على أى أساسٍ عدَّ العالم اللغوى هذا الرثاء بالذات من باب الخير ؟ هل هناك رثاءٌ يدخل فى باب الخير وآخر يدخل فى باب الشرّ ؟ أليس الرثاء عموماً هو التعبير عن حزن الفقد ولوعته والصدمة التى يثيرها الموت فى نفوس الأحياء وذلك الألم الكونى الذى يحسّونه حين تُذَكّرهم هذه الصدمة بأنهم أيضا عما قريب ميتون مدفونون فى ذلك القعر المظلم ومتروكون للدود ينهشهم ليستحيلوا بعد ذلك إلى تراب ؟ فلم إن كان هذا الرثاء فى الرسول وصحابته قيل إنه قد دخل فى باب الخير فضعف ولان ؟ هل يكون الرثاء خيرا أو شرًا بحسب شخصية المرثى ؟ وهل نفهم من هذا أنه لو كان فى قاطع طريق مثلا أو فى حاكم مستبد باطش لأتى قويا ممتازا ؟ الحقيقة أن الضعف فى مقولة الأصمعى واضح أشد الوضوح . قد كنتُ أفهم أن يقال مثلاً : لعل حسَّان ، فى بعض مرثياته فى الرسول والصحابة ، لم ينتظر الوقت والحالة النفسية الملائمين للنظم فتسرّع ونظم شعرا ضعيفا تحت وطأة الإحساس بأن ذلك أمر واجب لامعدى له عن التقدم للقيام به ، وكأنه لاينظم قصيدة رثاء بل يؤدى واجب عزاء . أما أن يقال إن رثاءه هذا قد دخل فى باب

من أبواب الخير فضعف ولان فهذا مالا أفهمه . وإننا لنتساءل : وما رأى الأصمعى فى حائية حسان فى حمزة ونونيته فى عثمان وهما من أقوى الشعر الرثائى ؟ ثم ما رأيه فى مناقضاته لشعراء مكة المشركين وذبّه عن الإسلام ورسوله عليه السلام وهى شعر قوّى لايقل إن لم يزد فى قوته وجودته عن شعره الجاهلى ؟ ترى هل يقول إن الدفاع عن الدين من أبواب الشر ولذلك جاء هذا الشعر قويا ؟

على كلّ حال ، لانريد أن ننسى أنفسنا فى المناقشة النظرية ، إد المهمُّ أن ننظر فى دواوين الشعراء المخضرمين ونقارن بين شعرهم فى الجاهلية وشعرهم فى الإسلام لنرى مدى صدق الملاحظات التى أبداها الأصمعى ، فذلك هو الفيصل فى الأمر .

لقد رجعت إلى عدد من دواوين هؤلاء الشعراء مثل حسَّان وكعب بن زهير وعمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر وعمرو بن معديكرب الزبيدى والعباس بن مرداس السلمى والخنساء ومعن بن أوس والحطيئة ، فضلا عن ديوان النابغة الجعدى بطبيعة الحال . وهذه هى بعض الملاحظات التى خرجتُ بها فيما يختص بالنقطة التى نحن بصددها :

أن هؤلاء الشعراء لم يتخلوا بعد الإسلام عن الموضوعات التى

كانوا ينظمون فيها فى الجاهلية ، بل ظلّوا يفخرون بأنفسهم وأقوامهم ويهجون خصومهم ويتغزلون كما كانوا يتغزلون من قبل ، ويرثون أحباءهم ويرضون ويسخطون ... إلخ مثلما كانوا يفعلون قبل إسلامهم .

لنأخذ مثلاً لامية كعب ، التى سُمِّيت بالبردة والتى أنشدها بين يدى الرسول : ترى ماذا قال فيها ؟ لقد افتتحها بالتغزل فى سعاد وأطال الوقوف عند محاسنها وبخاصة طعم ريقها الذى أخذ يتفنن فى وصف حلاوته وتشبيهه بخمر معتقة ممزوجة بماءٍ باردٍ تُنُوِّق فى اختيار الجدول الذى أُحضر منه والوقت الذى استُقِى فيه . ثم خرج من ذلك إلى تصوير ناقته مثلما كان يفعل شعراء الجاهلية ، وهو ماعدّه الأصمعى فى مقولته تلك بابا من أبواب الشر كما يعرفه الفحول الجاهليون . كذلك ففى القصيدة هجاء أليم للأنصار أثار من لَذْعِهِ المهاجرين وأحنقهم عليه ، ولم يرضوا إلا بعد أن عاد فنظم قصيدة فى مدحهم ، وهى بالمناسبة قصيدة فى منتهى القوة (٣٨) ، بل هى أقوى شعره كله وأحسنه ، وليس فى شعره الجاهلى مايدانيها .

ولكعب أيضا قصيدة لامية جميلة بدأها بوصف المشيب وتبرم زوجته به لهذا السبب وردّه عليها بأن حاليهما واحدة ، فهى أيضا

قد شابت مثله ، فلم التبرم إذن ؟ ثم يمضى فيتذكر أيام شبابه ولهوه مع أصدقائه وشربهم الخمر ، ويصف فعلها فى نفوسهم ، وينطلق على ناقته فى الصحراء فى بهيم الليل مصوّرا عزيف الجنّ وهيمنتهم التى لاتُعْقَل ، والذئب الذى صاحبه فى هذه الرحلة : لونا وعواءً وجسماً ومشياً ومشاعر ، وكذلك الغراب . وحتى البعر الذى سلحته ناقته نراه يتلبث عنده ويصفه . وهو يصف أيضاً خوفه وتردُّده عندما أحسّ بالإرهاق : أينام فيعدو عليه وعلى ناقته الذئب أم يسلم أمره للرحمن ؟ وينتهى بأن يضع رأسه ويستريح ، لينهض آخر الليل فيركب ناقته وينطلق مرة أخرى فى سبيله . وفى آخر القصيدة يتمدح بفنه الشعرى ويذكر معه الحطيئة فى هذا الصدد . فما رأى الأصمعى فى هذه القصيدة وهى من شعر كعب الإسلامى ؟ أتراه يقول إنها قصيدة ضعيفة لهذا السبب ؟ لا أظن ذلك بحال ، فالقصيدة من أروع ماخلّف لنا كعب (٣٩) . وليس فى شعره الجاهلى أيضا مايساويها .

وهناك رائيته فى مدح على بن أبى طالب ، تلك القصيدة التى افتتحها ، كما افتتح اعتذاريته للرسول عليه السلام ، بالغزل (ولكن فى رملة لا سعاد) ، والشكوى من آلام حبه لها ، ووصف رحلتها هى وقومها ... إلخ . وهى أيضا من الشعر

الجميل ، وقد قالها بطبيعة الحال بعد الإسلام (٤٠) .

وللزبرقان قصيدة إسلامية يفاخر فيها بقومه قالها فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام حين أتاه مع قبيلته يعلنون إسلامهم فى عام الوفود ، وأخرى مثلها فى الفخر بقبيلته (٤١) ، وقد قالها أيضا فى عهده صلى الله عليه وسلم (٤٢) ، وغير ذلك .

ولعمرو بن الأهتم أيضا مقطوعة صغيرة يهجو فيها أحد أعضاء وفد قبيلته على الرسول عليه السلام ويعيّره بأنه رومى الأصل (٤٣) . وله مثلها فى الفخر بنفسه وبقومه أمام عمر بن الخطاب (٤٤) . وكلتا المقطوعيتن قوية عنيفة .

ثم هذا هو العباس بن مرداس السلمى يفاخر بنصره هو وقومه للرسول يوم حنين قائلاً :

نصرنا رسول الله من غضبٍ له ... بألف كمىّ لاتُعَدُّ حواسرُهُ
حملنا له فى عامل الرمح رايةً ... يذود بها فى حومة الموت ناصره
ونحن خضبناها دماً فهو لونها ... غداة حنين يوم صفوان شاجِرُه (٤٥)

وانظر إلى تمدحه أمام عروسه بما فعل فى ذلك اليوم :

ألا هل أتى عِرْسى مكرّى ومقدمى ... بواد حنين والأسنة تُشْرَعُ
وقَوْلى إذا ما النفس جاشت لها: «قِرِى» ... وهامٌ تدهدى بالسيوف وأذرع
كأن السهام المرسلات كواكب ... إذا أدبرت عن عجّها وهى تلمع
وكيف رددتُ الخيل وهى مغيرة ... بزوراء تعطى باليدين وتمنع
نصرنا رسول الله فى الحرب سبعة ... وقد فرّ من فرّ عنه فأقشع (٤٦)

وعندما أعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم أباعر ، وكان قد أعطى كلا من الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن مائة بعير ، نظم أبياتاً غاضبة جعلت الرسول يزيده فى العطاء حتى رضى (٤٧) .

ولقد ظلت الخنساء ترثى أخاها صخرا فى الإسلام كما كانت تفعل فى الجاهلية . وهذه المراثى من نفس مستوى مراثيها له قبل إسلامها ألماً وحرقةً وقوة سبك وتعداداً لمآثر الأخ الفقيد . ويمكن الرجوع إلى ديوانها والمقارنة بين الشعرين . وهذا مثال :

ضاقت بى الأرض وانقضّت مخارمها	حتى تخاشعت الأعلام والبيد
وقائلين : « تَعزَّىْ عن تذكره	فالصبر . ليس لأمر الله مردود »
ياصخر ، قد كنت بدرا يستضاء به	فقد ثوى يوم متَّ البدر والجود
فاليوم أمسيت لايرجوك ذو أمل	لمّا هلكت وحوض الموت مردود
وربّ ثغر مهولٍ خضت غمرته	بالْمُقْرَبات عليها الفتيةُ الصيدُ
نصبت للقوم فيه فضل أعينهم	مثل الشهاب وَهَى منهم عباديدُ(٤٨)

ولعمرو بن معديكرب مثلاً قصيدة قصيرة يهاجم فيها سعد بن أبى وقاص لأنه وزع يوم فتح القادسية الأموال على أفراد الجيش على قدر ماقرأوا من القرآن مما أثار عمراً وآخرين ودفعهم إلى رفض قسمتهم إلا أن يفضلهم على الناس . وهو يبدأ الأبيات بحديث الطيف ويذكر الشباب ومرابع الديار البعيدة ، ثم يقول :

ألا أبلغ أمير القوم سعدا	فقد كذبت أليّته وجارا

وحــــرَق نابـــــه ظلمـــــا وجهــــلا علـــىَّ فقـــد أتـــى ذمـــّا وعــــارا
هُبِلْـــتَ ، لقــد نسيــت جـِلاد عمـرو وأنــت كخامــع تلــج الوجـــارا
أُطاعـــــِنُ دونـــــك الأعــدا، شــزرا وأغشـــى البيــض والأســل الحِـــرارا
ببـــــاب القادسيـــــة مستميتــــا كليـــث أريكـــةٍ يأبـــى الفـــرارا
أكـــرّ عليهمـــو مُهْـــرى وأحمـــى ، إذا كرهـــوا ، الحقائـــق والذِّمـــارا
جــزاك اللـــه فـــى جَنْبـِـى عقوقـــا وبعــد المـــوت زقّومــاً ونـــارا (٤٩)

ولعمرو أبيات أخرى فى نفس الموضوع تحمل الروح ذاتها : روح السّخط والافتخار ببلائه فى ذلك الفتح (٥٠) .

وإن الإنسان ليتساءل : ماذا يقول الأصمعى فى هذه الأشعار وقد قيلت فى الإسلام ؟ أهى من الشعر اللين الضعيف ؟ وكذلك ماذا يقول فى بابها ؟ أهو باب خير أم باب شر ؟ قد ينتقد قوم عمراً لأنه بذلك ينشز على قائده ويناطحه والموقف خطير عسير لايحتمل عصيانا قد يثير الفتنة . ولكن ماذا يفعل الجندى عندما يرى نفسه قد أحسن البلاء وبذل أقصى طاقته ثم يُعْطَى أقل من غيره لا لشىء إلا لأنه لا يحفظ من القرآن مثلما يحفظون ؟ إن حفظ القرآن هو إنجاز طيب ولامشاحّة فيه ، وبالذات فى ذلك العصر الأول . إلا أن المكافأة عليه ليس مكانها الحرب ، حتى لايوغر ذلك الصدور ويثبّط العزائم .

ومن الشعراء المخضرمين الذين رجعتُ إلى شعرهم معن بن أوس المُزَنى . وقد وجدتُ له مثلا قصيدة يفتتحها بالتغزل فى

حبيبته واصفا لونها وعينيها وجيدها وفمها وريقها وأسنانها وأنفها وشعرها وكفلها وساقها وكعبها الممتلىء باللحم وصوتها الغنج المنغوم :

سبتنى بعينى جوذر بخميلة ... وجيد كجيد الرئم زيّنه النظمُ
ووحفٍ يُثَنَّى فى العقاص كأنه ... عليها إذا دَنّت غدائرَها كَرْمُ
وأقنى كحد السيف يشرب قبلها ... وأشنب رفّاف الثنايا له ظَلْمُ
لها كَفَلٌ راب وساق عميمة ... وكعب علاء اللحم ليس له حجم
تصَيّدُ ألباب الرجال بأنسها ... ويقتلهم منها التدلل والنَّغْمُ
لُباخِيةٌ عجزاء جُمٌّ عظامها ... نمت فى نعيم وانمهّل بها الجسم
توالدها بِيضٌ حرائر كالدُّمَى ... نواعم لا بيضٌ قصارٌ ولا خُثْمُ

ثم يخرج الشاعر من ذلك إلى مدح قومها بالكرم والبطولة فى شعر كله مثل هذا الطراز قوة وجمالاً . والقصيدة إسلامية (٥١) .

ولن أحاول أن أحاج من يقول إن هذا الغزل قد يكون داخلاً فى باب الشرّ ، لأن المحاجة فى هذا قد تطول (٥٢) . ولكنى أسأل : هل مدح قوم بالكرم والشجاعة صدقاً هو أيضا يدخل فى هذا الباب ؟ أم تراه يدخل فيه أيضا الأبيات من الحادى والعشرين إلى الرابع والخمسين من القصيدة ذاتها وهى فى الحديث عن رجل من ذوى رحم معن يبغضه أشد البغض رغم أن الشاعر يبذل له صافى مودته ويخلص له النصح ويعمل دائما لمصلحته ؟ ويصّور معن حيرته وحرج موقفه حينئذ ، إذ هو لايستطيع أن يعادى ذا

رحمه وفى ذات الوقت إذا عفا عنه وصفح لم يزدد إلا شرّا وأشرا . كما يصف نفاد حيله كلها فى كسبه . ثم يقول إنه لم يزل فى لينه له وتعطفه عليه تعطف الأم على ولدها وتواضعه معه وصبره على سخافاته وكرهه وإيذائه حتى قدر فى نهاية الأمر ، وبعد جهد جاهد ، أن يستل من نفسه أضغانها ويحوّله من عدو كاشح إلى قريب مسالمٍ . والأبيات ، على طولها ، من أعذب الشعر وأشجاه وأنبله وأقواه فنّا . ولا أظن أحداً يقدر على المجادلة فى أنها داخلة فى الخير من أوسع أبوابه .

ولمَعْنٍ أيضا عدة أبيات فى التهكم بابن الزبير وبخله والتيس المهزول الذى قدَّمه لِقِرَى ضيوفه وكانوا يبلغون ثلاثة وسبعين ، وهى من أمتع الشعر وأوخزه (٥٣) .

أما الحطيئة فلست أحسبُ أن أحداً يجادل فى أن شعره الإسلامى من أجود وأروع مايمكن . ولو لم يكن له إلا الشعر الذى تهكم فيه بالزبرقان بن بدر وقومه ومدح أبناء عمهم بما فيه من تصوير حىّ ، وسخرية ذكية نافذة رغم خلوها من الفحش والإقذاع ، وعذوبة عبارة ، وموسيقى جميلة لكفاه .

ونقتصر من شعر متمم بن نويرة وأبى ذؤيب الهذلى بمرثيتيهما : الأول فى أخيه الذى قتله خالد بن الوليد ، والثانى

فى أولاده الخمسة الذين ماتــوا فى عام واحد . وهما من الشعراء المخضرمين ، والقصيدتان إسلاميتان . وليس من السهل العثور على نظير لهما من شعر الرثاء الجاهلى .

ونأتى إلى حسان بن ثابت ، الذى كانت ملاحظة الأصمعى على شعره هو والنابغة الجعدى أساس مقولته التى كانت مثاراً لهذه الأقاويل والآراء الكثيرة عن ضعف الشعر فى الإسلام . لقد حكم الأصمعى على شعر حسان فى الإسلام بأنه تنكب شعر الفحول ودخل فى باب الخير من مراثى الرسول عليه السلام وصحابته البررة الأطهار ، ولذلك ضعف وأصابه اللين والتهافت . وهو حكْمٌ ، كما كررنا ، مجحف لاينهض على أساس نظرى أو تطبيقى . وقد سقنا شواهد من شعر بعض المخضرمين ، وها نحن هؤلاء نسوق شواهد من ديوان حسان أيضا تثبت أن ماقاله الأصمعى غير صحيح : فلا حسَّان تــرك الأغراض الشعرية التى كان فحول الجاهلية ينظمون فيها ، ولاشعره ضعف بسبب الإسلام . أما إن وجدنا له شعراً ضعيفاً فذلك وضع طبيعى ، إذ لا يوجد شاعر كل شعره بارع متين . علاوة على أن بعض العلماء قد عزوا الشعر الضعيف فى ديوان حسان إلى أنه مصنوع ومنسوب إليه زوراً . ولعل الأصمعى نفسه هو أول من قال ذلك . وقد سبق أن أوردت كلماته فى هذا

الصدد .

على أيـة حال ، يمكن الرجوع فى شعر حسان مثـلا إلـى همزيته التى أولها :

عَفَـتْ ذات الأصابـع فالجـواء   إلـى عـذراء مَنْزِلُهـا خَـلاءُ

وهـى فـى الردّ على هجاء أحد الشعراء المشركين للنبى عليه السلام . وقد وقف فيها حسان على الأطلال ، وذَكَرَ الطيف ، ووَصَفَ فتنة شعثاء متمثلة فى ريقها الذى هو أحلى من الخمر الممزوجة من عسل وماءٍ ومن طعم التفاح الغضّ الذى قُطف لتوه . ثم يدخل فى الثناء على الخمر ويتباهى بتعاطيها قائلا إنهم حين يشربونها تجعلهم ملوكاً وأسوداً مفترسة . ثم يهدد قريشاً بغارة إمَّا أن يخلوا سبيلها فيؤدوا نسك العمرة وإمَّا أن يعترضوها فيذلهم الله على أيديهم . وهو يتحدث عن إيمانه بالرسول وبالوحى الذى ينزل عليه ويفاخر بقومه الأنصار لمسارعتهم إلى الإيمان ونصرة الإسلام ونبيه . ويرد على شتيمة ذلك الشاعر للرسول مجلجلا بأنه هو وأباه وعرضه فداء له عليه السلام من أى إساءة تحاول قريش توجيهها إليه ... إلخ (٥٤) .

والقصيدة كما ترى فيها خمر ووصف لبعض مفاتن المرأة ، وفيها هجاء ، وفيها شىء من الفخر ، وفيها مدح للنبى عليه السلام ، وفيها منافحة عنه وعن دينه ، وتهديد بغارة كاسحة . أى

أنها تجمع بين الأغراض القديمة والجديدة . وكلها من أولها لآخرها قوية صلبة ، فلا الخير الكثير الذى فيها نال منها ، ولا الإسلام منع حسان مثلاً من أن يتغزل فى تلك التى سماها شعثاء على النحو الذى شبّب بها .

كذلك لم يمنعه الإسلام من أن يهجو واحداً من المسلمين المهاجرين من رهط أبى بكر الصديق ، وهو هجاءٌ شديد العنف . قال :

لو كنتَ من هاشم أو من بنى أسدٍ — أو عبد شمس أو اصحاب اللّوا الصِّيدِ
أو من بنى نوفل أو رهط مطّلب — لله درُّك لم تهمم بتهديدى
أو فى الذوابة من قومٍ ذوى حسبٍ — لم تصبح اليوم نِكْساً ثانى الجيد
أو من بنى زُهرةَ الأخيار قد عُلِموا — أو من بنى جُمَح البيض المناجيد
أو فى السرارة من تَيْمٍ رضيتُ بهم — أو من بنى خَلَفِ الخُضْر الجلاعيد
يا آل تيم ، ألا يُنْهَى سفيهكمو — قبل القذاف بقول كالجلاميد
لولا الرسول ، فإنى لست عاصِيَهُ — حتى يغيبنى فى الرمس ملحودى
وصاحب الغار إنّى سوف أحفظه — وطلحةُ بن عبيد الله ذو الجود ،
لقد رميتُ بها شنعاء فاضحة — يظل منها صحيح القوم كالمودى
لكن سأصرفها جهدى وأعدلها — عنكم بقول رصين غير تهديد
إلى الزبعرى ، فإن اللوم حالفه — أو الأخابث من أولاد عبُّودِ(٥٥)

وقد استطاع الشاعر ، كما هو بيّن ظاهر ، أن يقيم توازنا بارعاً بين رغبته فى شفاء غيظه من مهجوّه وبين انصياعه لمبادىء دينه وحبّه للرسول وللصحابة الكبار الذين تربطهم بذلك المهجوّ

روابط القرابة ، وانتهى إلى أن حوَّل هجاءه وصواعقه إلى ابن الزبعرى المشرك الذى كان يهاجى المسلمين ودينهم ونبيهم عليه الصلاة والسلام .

والآن ، ماقول الأصمعى فى هذه القصيدة ؟ أهى من شعر الخير أم من شعر الشر ؟ سيقال إنها هجاءٌ لمسلم ، وبالتالى فقد دخلت فى باب من أبواب الشر ؟ ولكن ألا يمكن أن يكون حسان قد قالها دفاعاً عن نفسه وما على دافع العدوان عن نفسه من سبيل ؟ وحتى لو قلنا إنها هجاءٌ لايرضاه الإسلام أفليس معنى هذا أن الإسلام لم يمنع حسان من قول مثل هذا الهجاء ؟ أياما كانت الزاوية التى ننظر منها إلى المسألة فإن مقولة الأصمعى تتكشف عن عوارٍ فادح . وعلى أية حال ، فالقصيدة قوية الأسر جدّ محكمة .

ولنقرأ أيضا هذه الأبيات ، ولا أظن لحسان شعراً فى الجاهلية يدانيها عنفا وإيلاماً وصراحة فى السبّ . وهى فى هجاء هند زوجة أبى سفيان أيام أن كانت لاتزال على الشرك :

أشِرَتْ لَكَاعِ ، وكان عادتَها ... لؤمٌ إذا أشِرَتْ مع الكُفْرِ

لعن الإلهُ ، وزوجَها معها ، ... هِنْدَ الهنود طويلةَ البَظْرِ

أخَرَجْتِ مُرْتِصَةً إلى أُحُدٍ ... فى القَوم مُعْنِقةً على بكْرِ

وعصاك إستُكِ تتّقين بـه ... دق العُجَايَةِ عارَى الفِهْرِ
قَرِحتْ عجيزتها ومشرِبُها ... من نصّها نصّاً على القهْرِ
ظلت تداويها زميلتُها ... بالماء، تنضحه وبالسِّدْرِ
ونسيت فاحشةً أتيت بها ... ياهندُ ، ويحك ، سُبّةَ الدهرِ
فرجعتِ صاغرةً بلا تِرَةٍ ... مما ظفِرْتِ به ولا وِتْرِ
زعم الولائدُ أنها ولدتْ ... ولداً صغيرا كان من عَهْرِ (٥٦)

ولنستمع كذلك إلى عينيته التى يمدح فيها المسلمين من المهاجرين ويصفهم بالإيمان والعفة والحلم ، حتى إذا حاول أحد أن يعتدى عليهم إذا بهم بَطَشَةٌ جبارون ، ويقول إنهم قوم الرسول فلاعجب أن يكونوا بهذا الكرم والنبل . فالقصيدة كما ترى إسلامية الطابع ، سهلة اللفظ والعبارة والتركيب . كما أنها بسيطة البناء ، إذ هى مبنية على موضوع واحد يدخل إليه الشاعر مباشرة منذ أول بيت ولايفارقه إلى أن يبلغ البيت الأخير . ومع هذا كلّه ، فهى قصيدة قوية رائعة . فما رأى الأصمعى ومن يشايعه على قوله (٥٧) ؟

أو فلنسمع إلى أبياته اللامية فى التنصُّل من كلام الإفك . وهى أبيات جميلة مؤثرة ، وكلها إسلامية . ومنها :

حَصَانٌ رزانٌ ماتُزَنّ بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافلِ
مُهذبة قد طيّب الله خِيمَها ... وطهّرها من كل سوءٍ وباطلِ
فإن كنتُ قد قلت الذى زعموا ... فلا رفعت سوطى إلىَّ أناملى
وإن الذى قد قيل ليس بلائطٍ ... بها الدهر ، بل قول امرىءٍ بِىَ ماحلِ

فكيـف وذى ماحبيـت ونُصْرتـي لآل نبـى اللـه زيـن المحافـلِ
رأيتُـك ، وليغفـر لـك اللـه ، حـرةً مـن المحصنات غير ذات غوائل (٥٨)

وله كذلك عـدة قصائـد إسلامية على رويّ الميم ، وكلها قوى وجميل . ومنها القصائد التى تبدأ بالأبيات التالية :

أولئـك قومـى ، فـإن تسألـى كـرام إذا الضيـف يومـاً ألـمّ (٥٩)

***

منـع النـوم بالعشـاء الهمـومُ وخيـالٌ إذا تغـورُ النجـوم (٦٠)

***

هـل المجـد إلا السـؤدد العَوْدُ والنَّدَى وجـاه الملـوك واحتمـال العظائم (٦١)

***

ابْـكِ ، بكـت عينـاك ثـم تبـادرت بـدم يَعُـلُّ غُرُوبَهـا سجّـامُ (٦٢)

***

أعين ، ألا ابكى سيد الناس واسفحى بدمعٍ فإن تنزفيه فاسكبى الدما (٦٣)

وبالمناسبة ، فليس كل شعر حسان الجاهلى قويا جيدا كما يوهم كلام من فضلوه على شعره فى الإسلام ، بل فيه الجيد والردىء ، مثلما فى إسلاميه اللّيّن والمتين .

هذا رأى الأصمعى ، وهذه مناقشتنا له . وإذا كان هناك من يتابع الأصمعى على كلامه فثمة من يخالفه القول ويرى أن الأشعار التى قيلت بعد الإسلام تساوى إن لم تفق شعر الجاهلية . ومن هؤلاء ابن خلدون (٦٤) ، وعبدالرحمن البرقوقى (٦٥) ، ود. شوقى ضيف (٦٦) ، ود. سامى مكى العانى ، الذى يرجع دعوى

الأصمعى هذه إلى « ولعه بالغريب ، وهو مقياس شخصى قد لايوافقه عليه الكثير من النقّاد » (٦٧) ، وكذلك د. صلاح الدين الهادى ، ورأيه « أن حسانا شاعر مطبوع فى شعره الإسلامى كما كان مطبوعا فى شعره الجاهلى . غاية الأمر أنه تأثر بالأسلوب القرآنى الناصع البيان المطرد السياق الواضح الطريقة السهل الممتنع ، كما تأثر ببشاشة الإسلام ، فلان جانبه ورقت حاشيته وسلست ملكته الفنية ، فانتهج فى شعره الإسلامى الأسلوب الذى ... يسميه الأصمعى وغير الأصمعى لينا وضعفا ، وماهو فى النظرة المنصفة كذلك . وإنما يعجب الأصمعى وغيره غرابة الألفاظ وضخامة الأسلوب والمبالغة فى المعانى ، ويرون هذا دون غيره مقياس الجودة فى الشعر » (٦٨) .

فإذا أتينا إلى رأى الأصمعى فى شعر النابغة فإننا نراه يقول مرة إن شعره الذى قاله قبل الإفحام ، وهو القسم الجاهلى منه ، شعر جيد ، أما شعره فى الإسلام بعد أن انقشع عنه إفحامه فكأنه مسروق وليس بجيد . ومن هذا قوله إن اللين الذى يوجد فى شعر النابغة إنما سببه دخوله فى باب الخير . ومرة يقول إنه كان شاعرا مطبوعا قليل التكلف ، ولذلك كان يفضّل شعره .

ولو تجولنا فى ديوان النابغة فلسوف نجد أن حكم الأصمعى

الأوَّل على شعر الشاعر هو حكم ظالم . وقد سبق أن سقت نماذج من أشعاره المختلفة فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ، ومعظمها إسلامى . وهى خير ردّ على كلام الأصمعى . أما رأيه الثانى فهو أقرب إلى الصواب . لكن قول الفرزدق الذى اتكأ عليه الأصمعى فى هذا الحُكْم من أن النابغة كصاحب الخلقان : قد يكون عنده ثوب بآلاف وآخر بواف ، فهو حكم لايصدق على شعر النابغة وحده بل على كل الشعر تقريبا ، إذ من ذا الشاعر الذى يخلو إنتاجه من الحشف والخشار ؟ وقد سلف منى القول بأن ميمية النابغة فى تحميد اللّٰه وتمجيده أقرب إلى النظم منها إلى الشعر .

على أنه إذا كان الفرزدق يقصد أن الجيد والردىء فى شعر النابغة متعادلان كمًّا فلست أوافقه ، إذ معظم شعره جيّد ، أما الردىء فقليل . ومن هنا فإنى أميل إلى رأى ابن سلام الذى عدَّ فيه النابغة من المفلقين (٦٩) ، وحكم أبى الفرج الأصفهانى عليه بأنه شاعر متقدم .

أما ماقيل عن أحد أبياته من أنه أمدح بيت قالته العرب فهو كلام لانقف عنده ، إذ هو واحد من تلك الأحكام المطلقة الكثيرة التى تقابلنا فى كتب الأدب العربى القديمة عاريةً عن الحيثيات .

ولاشك أنَّ ماوصف به حنا الفاخورى شعر النابغة من الموسيقى والسلاسة والانسجام متوفر فى ذلك الشعر ، ولكن ليس بدرجة كبيرة . وإن فيما سبق أن سقته وحلّلته من شعر الشاعر دليلاً على ذلك .

هذا ، ونوافق د. عمر فروخ فى أن فى شعر النابغة شيئا من الإقذاع ، وقد بينا ذلك فيما مضى . وكذلك نوافق د. شوقى ضيف فى أن الأثر الإسلامى فى شعره بارز ، فهو يذكرى التقوى ويحمد اللّه على أنه لم يمت قبل أن يدخل فى الإسلام ، ويستغيث بالرسول وصاحبيه عندما ضربه أبو موسى الأشعرى بالسوط ، ويعلن أن الجهاد فى سبيل الله واجب دينى لايمكنه أن يتنصَّل منه ، ويمدح ابن الزبير بالعدل والتقوى وبالسير على منهج الخلفاء الراشدين ... إلخ ، وذلك علاوة على ميميته التى هى فى معظمها نظم لعدد من آيات القرآن الكريم .

على أن التأثير الإسلامى فى شعر النابغة تقابله فى الناحية الأخرى آثار جاهلية . وليست هذه الآثار الأخيرة مقصورة على شعره الذى قاله قبل إسلامه ، بل إن فى شعره الإسلامى أشياء من ذلك : إنه يفتخر بقومه افتخارا جارفاً فيه استهانة شديدة بالقبائل الأخرى واحتقار كبير لها . وهو يذكر الخمر التى كان يشربها فى

الجاهلية ويتغنى بها ويبدى نشوة فى الحديث عن منادمته للمنذر بن محرق . كما أن فى بعض شعره الهجائى عريا فاحشاً ، وذلك واضح فى أبياته التى يهجو بها ليلى الأخيلية مما سبق أن تعرضنا له ، والتى دفعتها إلى أن تردّ عليه بالمثل ذاكرةً أمّه وأنها هى أيضا يقال لها : « هَلاَ » ، أى أنه إذا كان يعّيرها بداءٍ ففى أمّه مثله (٧٠) .

وهذه الآثار الجاهلية موجودة فى أكثر من قصيدة قالها فى الإسلام . وقد وقف أبو زيد القرشي صاحب « الجمهرة » عند أول قصيد قالها النابغة فى الإسلام ومطلعها :

خليلـــىَّ ، عوجـــا ساعـــةً وتهجّـــرا ولُومَا علـى مـا أحـدث الدهـر أوْ ذَرا

وهى القصيدة التى دوّى بها صوته فى حضرة النبى عليه الصلاة والسلام عندما وفد عليه مع قومه سنة تسع للهجرة ليعلنوا إسلامهم وخضوعهم لحكومة النبى فى المدينة ويصبحوا بذلك جزءاً من أمة المسلمين ، وعدّها من « المشوبات » . وقد فسَّر هو هذه اللفظة بأنها القصائد « اللاتى شابهن الكفر والإسلام » ، وهى عنده سبع : واحدة لكل شاعر (٧١) .

والذى يهمنا هنا هو قصيدة النابغة . والذى ينظر فيها لايجد أىّ كفر على الإطلاق ، أما ذكر الإسلام والرسول فهو موجود . وسائرها فى الحكمة ووصف الفرس وفخر الشاعر بقبيلته وهجائه

لخصومها . لقد ذكر النابغة مثلا فى قصيدة أخرى له ما كان يفعله فى الجاهلية من ذبح العتر عند الأوثان (وقد تناولت ذلك من قبل) ، أما فى هذه القصيدة فليس شيء من ذلك . ومن هنا فلست أفهم لماذا جعلها صاحب « الجمهرة » من «المشوبات» .

ولعلّ هذا هو السبب فى أن محقق الكتاب قد حاول أن يقدم من عنده هو تعريفا آخر لمصطلح « المشوبات » ، إذ قال : « المشوبات هى التى شابها ، أو شاب أصحابها ، الكفر والإسلام » (٧٢). وهو كما ترى تعريف يحاول به المحقق أن يتلافى قصور التعريف الأول ، ولكن هل يمكن قبوله ؟ لا إخال . ذلك أن صاحب المصطلح مادام قد شرحه بنفسه فهذا هو الشرح الذى نعتمده ونناقشه . وقد بيّنا رأينا فيه . وعلى أية حال ، فالشعراء الذين كانوا كفارا ثم أسلموا كثيرون ، وهم كل المخضرمين إلى جانب الذين جاءوا بعد ذلك وكانوا نصارى أو يهوداً ثم دخلوا فى الإسلام . ولعدد من هؤلاء قصائد تحت تصنيفات أخرى ، مثل حسان وعبد الله بن رواحة (من أصحاب المذهبات) (٧٣) ، وأبى ذؤيب الهذلى ومتمم بن نويرة (من أصحاب المراثى) (٧٤) . فعلى أى أساس كان هذا التصنيف

إذن ؟

هذا ، وقد وصف المفضل القصائد التسع والأربعين التى جمعها أبو زيد القرشى فى « الجمهرة » بأنها « من عيون أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام ونفيس شعر كل رجل منهم » (٧٥). وهو حكم يشمل قصيدة النابغة ، بوصفها واحدة من قصائد الكتاب . وهذا الكلام هو خير ردّ على دعوى الأصمعى أن شعر النابغة فى الإسلام يشبه أن يكون مسروقا وليس بجيد ، إذ القصيدة فعلاً من أقوى الشعر وأمتنه وأجمله فى ذلك العصر . ولا أظننى سأكون مغالياً إذا قلت إنه قل أن يوجد لها نظير فى موضوعها فى الشعر الجاهلى (٧٦) .

وقد سبق أن أوردنا عدداً غير قليل من أبياتها فى الفصل الماضى ، وهأنذا أسوق عدداً آخر منها . وإذا كانت الأبيات الأولى من أواخر القصيدة فإن الأبيات التالية ستكون من بدايتها :

خليلىّ عوجا ساعة وتهجّرا ... ولوما على ما أحدث الدهر أو ذرا
ولاتجزعا . إن الحياة ذميمة ... فَخفَّا لروعات الحوادث أو قِرَا
وإن جاء أمر لاتطيقان دفعه ... فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا
ألم تريا أن الملامة نفعها ... قليل إذا ما الشىء ولّى وأدبرا
تهيج البكاء والندامة ثم لا ... تغيّر شيئا غير ماكان قُدّرا
أتيتُ رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتابا كالمجرة نيّرا
تذكرتُ والذكرى تهيج لذى الهوى ... ومن حاجة المحزون أن يتذكرا

ندامـــاى عنــد المنـذر بــن محــرق — أرى اليــوم منهــم ظاهـر الأرض مقفرا

كهـــولا وشبانـــا كـــأن وجرههـــم — دنانيــر ممــا شيــف فى أرض قيصرا

ومازلــت أسعـــى بيـــن بـــاب ودارةٍ — بنجــران حتـــى خفــتُ أن أتنصـــرا

لــدى ملــك مــن آل جفنــة خالُــهُ — وجــدّاه مــن آل امــرىء القيــس أزهرا

يديـــــر علينـــا كأســـه وشـــواءه — مناصفُــه والحضرمــىّ المحبّــرا (٧٧)

خنيفــاً عراقيـــا ورَيْطـــا شآميـــاً — ومعتصــرا مــن مســك داريــن أذفرا

... إلخ

فأى روعـة ! وأى إبداع ! واى ظلم ظلمه الأصمعىُّ النابغة وشعره فى الإسلام ! أرأيت إلى هذه الأفكار البسيطة فى الحياة والعميقـة أبعــد العمق فى آن ؟ إن الجزع لايفيد ولا يردّ شيئا فات ، ثم لايجنى الإنسان شيئا إلا البكاء والندم ، فلم الجزع إذن ؟ والشاعر حين يقول ذلك لايصطنع نبرة الوعظ ، فهو يرى أن الحياة بغيضة ، وهذا كلام لايقوله الوعَّاظ ، كما بيّن أنها لاتبالى بأحد سواء صبر لروعاتها أو استخفته ، وهذا أيضا كلام لايقوله الوعاظ . ثم هذه الذكريات الأسيانة التى يسترجعها الشاعر ليتسلى بها من أحزانه : ذكريات الشباب الهنىء الذى لم يكن يبالى شيئا .. ذكريات الأوقات السعيدة الماجدة التى قضاها مع المنذر بن محرق منادماً ومؤاكلاً ومشاربا ، وهذه التفصيلات التى تبرز تلك الذكريــات واضحــة جلية وتشى بالنشوة القديمة من ذكر لنسب المنذر ، والكأس ، والشواء ، والملابس الفخمة التى أتحفهم بها

وأخذ الشاعر يسرد أسماءها ، والمسك الأذفر الذى لايفوته أيضا أن يؤكد أنه وارد دارين .

وقبل ذلك كلِّه هذه المقدمة التى تبدو وسط مقدمات الشعر الجاهلى كأنها غريبة ، والتى لايقف فيها الشاعر على الأطلال ، ولا يبكى فيها حبه الضائع ، ولايتغنى فيها بالخمر وماتهيجه من طرب وانتشاء ، بل يتجه فيها بالنصح الحكيم إلى خليليه متأملا فى صروف الدهر وطبيعة الحياة .

حقا أن هذه القصيدة هى ، كما قال المفضل ، من عيون الشعر العربى جاهليه ومسلمه . إن الرسول عليه السلام ، وهو أفصح العرب ، لم يملك أن قال للنابغة عندما سمع منه هذه القصيدة وناقشه فى بعض ماجاء فيها : « لايفضض الله فاك » ، وذلك عندما أخذت الشاعر نشوة الفخر وطارت به إلى السماء عند النجوم والشموس والكواكب والأقمار فلم ير لقومه فى الدنيا من نظير فى المكارم والرجولة والجود والبطولة والسلطان فاستجمع المذخور من طاقته حينئذ عزماً منه أن يرتقى مرقاة أخرى ، قائلا :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرا

يقصد أنهم يريدون أن يفوزوا بالحسنيين : مجد الدنيا ، وعزة

الآخرة ، أى الجنة .

على أن ليست هذه هى القصيدة الوحيدة البديعة فى شعر النابغة ، رغم ماضاع من شعره ، وهو فيما يبدو ليس بالقليل ، بل الحقّ أن معظم شعره جميل بديع .

ونأتى إلى المآخذ التى ذكرها المرزبانى فى « موشحه » والأصفهانى فى « أغانيه » .

أول هذه المآخذ ما نُسِب إلى الأصمعى من أن البيت التالى :

فأدخلك الله برد الجِنا ن جذلان فى مدخلٍ طيِّب

من التهافت واللين حتى لو أن أبا الشمقمق هو الذى قاله لكان رديئا ضعيفاً . وكان الأصمعى قد وصف أبياتا من نفس القصيدة بالجودة والمتانة (٧٨) .

والحقيقة أنه ينبغى بادىء ذى بدء التنبيه إلى أننا لانعرف موقع هذا البيت من القصيدة التى أعجبت الأصمعى ، لأن الرواية تقول إنه بعد أن أنشد الأبيات التى استشهد بها على جودة شعر الشاعر أنشد أبياتا أخرى بعدها ولكنها لم تسمّها لنا . ومن ثم فإننا لانعرف كيف وصل الشاعر لهذا البيت . ذلك أن الأبيات التى أوردها الأصمعى تتحدث عن حوار دار بين الشاعر وسليمى ، التى تعجبت من ابيضاض شعره وشيبه ، فلا تناسب بين هذا وذاك . حتى جامع شعر النابغة لم يعرف موقع هذا البيت من القصيدة ،

فوضعه مع أبيات أخرى فى آخرها ، كل بيت على حدة (٧٩) . ومع ذلك فلو نظرنا إلى هذا البيت بمفرده فلن نجد فيه مايعاب ، لا فى معناه ولا فى صياغته . ولو ذكر الأصمعى شيئا محدداً فيه لكان بإمكاننا أن نناقشه ، لكنه اكتفى بهذا الحكم الانطباعى غير المعلَّل .

ومن هذه المآخذ ما أُنكر عليه من التقديم والتأخير فى قوله :

وشمولٍ قهوةٍ باكرتُها فى التباشير من الصُّبح الأُوَلْ

إذ إنه أراد أن يقول : « فى التباشير الأول من الصبح » (٨٠) . وهى ملاحظة أسلوبية سليمة ، ولكن ليس فى التركيب الموجود فى البيت كل هذا العيب الذى يُوحى به الإنكار ، فالكلام مفهوم . وللشعر ضروراتُه بسبب وزنه وقافيته . وهناك شواهد أخرى على قلب التركيب بل على قلب المعنى ذاته أشد من هذا فى شعر الشعراء الآخرين . ومع ذلك فإننا نقول إنه لو جاء بتركيب الكلام على أصله لكان أفضل .

وأخذوا عليه أيضا قوله :

وما رابها من ريبة غير أنها رأت لِمَتى شابت وشاب لداتيا

إذ قالوا : « أى ريبةٍ أعظم من أن رأته قد شاب ؟ » (٨١) . وهو نقد فى غير محله ، إذ إنهم نظروا إلى البيت من وجهة نظر

المرأة ، ناسين أن الشاعر إنما يعبِّر عن موقفه هو ومشاعره هو . ومن الصعب عليه أن يعترف أنه ، رغم شيبه ، قد أضحى لايصلح للحبّ . ثم من قال إن كل من شاب شعره قد شابت نفسه ؟ إننا قد نجد بين الكهول ومن تجاوزوا الكهولة من لايزالون بعافية وخير وقدرة على إرضاء المرأة جسديا ونفسيًّا .

وقد تعرض إسحاق الموصلى لمثل هذا الموقف فقال :

ورأت شيبا علانى وآنت ... وابن ستين بشيب جدير
إن تَرَىْ شيبا علانى فإنى ... مع ذاك الشيب حلو مَزِير
قد يَفُلّ السيف وهو جرازٌ ... ويصول الليث وهو عقير

وهو يؤكد ماقلناه .

كذلك طعن بعضهم فى قوله :

وأزجر الكاشح العدوَّ إذا اغـ ... ـتابك زَجْراً منّى على أضَمِ
زجر أبى عروة السباعَ إذا ... أشفق أن يلتبسن بالغَنَمِ

وقالوا إن أبا عروة هذا كان ، فيما رُوى عنه ، إذا زجر السباع فتق مرارتها من شدة الصيحة ، فإذا صحّ هذا فالمفروض أن تنفتق مرائر الغنم معها . وقد ردّ المدافعون عن البيت بأن الغنم كانت قد أنست بصوته فلم يعد يُفزعها (٨٢) .

وهذا نقد عجيب ، إذ مادخل الشاعر بهذه المتاهة ؟ إن النابغة لم يقل إن صيحة أبى عروة كانت تفتق مرارة السباع ، وإنما كل ما أراد قوله هو أنه يصيح بالأعداء كما كان أبوعروة ذاك

يصرخ فى الوحش المغيرة على غنمه فتفر متبددة فزعة . ومن الواضح أن أبا عروة هذا قد اشتهر بذلك حتى ضربه النابغة مثلا . هذا كل ما هنالك . وليس من المعقول أن تنفتق مرارة الذئاب والضباع من مجرد صيحة بالغاً ما بلغ عنفوانها . أما كيف كانت الوحوش تخاف ولاتخاف الغنم ، فذلك راجعٌ إلى أن الذئاب لكونها معتدية كانت تتوجس من أى صياح يأتيها من جانب الراعى ، أما الغنم فهذا الصوت نفسه كان يدخل على قلوبها الاطمئنان .

أما المأخذ الذى أخذه هارون الرشيد على بيت النابغة فى رثاء أخيه فقد سبق أن تعرضنا له ورددنا عليه من قبل (٨٣) .

ويبقى ماقيل من أن النابغة كان مغلَّبا ، إذ لم يشتبك مع غيره فى هجاءٍ إلاَّ غُلِب رغم تفوقه على خصمه فى الشاعرية . ونحب أن ننبِّه إلى أن المقصود بالغَلَب هنا هو أن الخصم كان يجيب بمثل ما يجيب الواحد منا بـ « ولو ... » إذا هدده إنسان . فمثلاً عندما قال النابغة مخاطباً عقال بن خويلد العقيلى ، وكان قد أجار قوماً أساءوا إلى أهل الشاعر :

تجير علينا وائلاً فى دمائنا ... كأنك مما نال أشياعها عَمِ

يقصد أنهم قادرون على أن ينزلوا بقومه ما أنزلوه بأشياع أولئك الذين أجارهم ، أم تراه لايعلم بما أنزلوه بهم ؟ ردَّ عليه عقال قائلا : « لا ، بل على عمد يا أبا ليلى ! » (٨٤) . وليس هذا

انتصاراً ، ولكنه مجرد عناد لا أكثر . فهو ليس ردا على شعر ، ولا الردّ عليه يكون بالشعر ، ولكن بأن ينفذ النابغة وقومه تهديدهم .

ومثل ذلك ردّ ليلى الأخيلية عليه عندما أبدى احتقاره لها بسبب وقوفها ضده هو وأهله مع خصومهم ، قائلاً لها إنها امرأة وينبغى ألا تزج بنفسها بين الرجال ، وإن هناك من المشاغل الأنثوية ماكان يجب أن يشغلها عن هذا ، وكان من بين ماقاله :

ألا حَيِّيا ليلى ، وقولا لها : هَلاَ فقد ركبت أمراً أغرّ محجّلا

....

دعى عنك تهجاء الرجال وأقبلى على أدلفىّ يملأ استك فيشلا

وكيف أهاجى شاعرا رمحه استه خضيب البنان لايزال مكحّلا ؟

وهى أبيات ، كما ترى ، فى منتهى العنف والفحش والاحتقار . بيد أن الأخيلية لم يخجلها شىء من هذا وردت عليه بأن هذا الذى يرميها به موجود مثله فى أمّه ، فهى أنثى مثلها ... إلخ :

تعيّرنى داءً بأمك مثله وأى نجيب لا يقال لها : هَلاَ ؟ (٨٥)

والشاعر لم ينكر ما قالته ، ولا أمّه تدخلت بين الرجال كما تدخلت ليلى الأخيلية ، التى بِرَدّها هذا قد اعترفت بما رماها به النابغة وسلّمت له وإن كابرت . وعلى أية حال ، فإن الشاعر قد صرّح قبل أن ترد عليه بأنه لايمكنه أن يهاجى امرأة مثلها . فسكوته بعد ردها عليه ليس إذن أمراً مفاجئا ناشئا عن أنها أفحمته .

وهناك رواية عن أن النابغة وأحد معارفه من الشعراء ، وهو أوس بن مغراء ، الذى يقولون إنه لايسامت شاعرنا فى موهبته ، كانا يتهاجيان ويبحثان عن بيت من يقله قبل الآخر يصبح هو الفائز . ثم حدث أن توصّل أوس إلى نظم بيت هجائى قبل النابغة تقول الرواية إن النابغة قد اعترف بسببه لخصمه بالسبق ، فعدّ هو الغالب والنابغة مغلوباً . وهذا بطبيعة الحال ليس من الأهمية بمكان ، فليست الهزيمة فى الشعر بألاّ يسارع الشاعر بنظم البيت المراد . ثم من قال إن البيت الذى توصل إلى نظمه أوس هو البيت المقصود ؟ إن ذلك يصح أن يقال لو كان الاثنان يبحثان عن بيت معين ؟ بيد أن الأمر كما ترى ليس كذلك .

ومن غرائب الأمور أنه فى نفس الوقت الذى يقال فيه إن النابغة الجعدى ما دخل فى هجاء مع أحد إلا غُلِب نراهم يذكرون أن سبب المهاجاة بينه وبين ليلى الأخيلية أن أحد الشعراء قد ابتدأه بهجاء فأجابه النابغة بقصيدة لامية سمِّيت « الفاضحة » ، لأنه ذكر فيها مساوىء قشير وعقيل وكل ماكانوا يُسَبّون به ، وفخر بقومه جميعاً ومآثرهم (٨٦) . ألا ترى أننا ينبغى ألا نعطى لمثل هذه الأحكام حجما أكبر من حِجمها ؟ ومع ذلك فإن عددا من الدارسين العرب المحدثين إذا ذكروا النابغة ساقوا الكلام عن تغلُّب

الشعراء عليه كأنه حقيقة مسلّمة ! (٨٧)

الهوامش

١- طبقات الشعراء / ١ / ٢٦ ، ١٢٨ .

٢- الوافى : درهم وثلث .

٣- الموشح / ٨٩ - ٩٠ ، وأمالي المرتضى / ١ / ٢٦٩ . وانظر أيضا ، في حكم الفرزدق والعلماء على شعره ، « الشعر والشعراء » / ١ / ٨١ ، ٢٩١ ، والأغانى / ٤ / ١٣٧ .

٤- ابن قتيبة / الشعر والشعراء / ١ / ٣٠٥ . ولأبي منصور الثعالبى كلام مثل هذا عن حسان في كتابه « خاصّ الخاصّ » / ط مصر / ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨م / ٨٠ .

٥- العمدة / ١ / ١٠٧ .

٦- الموشح / ٩١ .

٧- جمهرة أشعار العرب / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / ٢ / ٧٦٩ .

٨- الشعر والشعراء / ١ / ٢٩١ .

٩- الأغانى / ٤ / ١٣٦ - ١٣٧ .

١٠- طبقات فحول الشعراء / ١ / ١٢٣ ، ١٢٤ - ١٢٥ .

١١- السابق / ٤ /١٣٠ .

١٢- الموشح / ٩٣ .

١٣- العسكرى / المصون في الأدب / تحقيق عبدالسلام هارون / الخانجى بالقاهرة ، والرفاعى بالرياض / ط ٢ / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م / ٢٣ .

١٤- تاريخ آداب اللغة العربية / ١ / ١٥٤ - ١٥٥ .

١٥- الوسيط في الأدب العربى وتاريخه / ١٦٤ - ١٦٥ .

١٦- جواهر الأدب / ٢ /١٤٤ - ١٤٥ .

١٧- العصر الإسلامى / ١٠١ ، ١٠٢ .

١٨- السابق / ١٠٣ .

١٩- السابق / ١٠٢ .

٢٠- تاريخ الأدب العربى / ١ / ٣٤٢ - ٣٤٣ .

٢١- د. محمد خضر / أدب صدر الإسلام / ٢٥٠ / هامش ١ .

٢٢- حنا الفاخورى / تاريخ الأدب العربى / ٢٤٢ .

٢٣- د. خليل إبراهيم أبو ذياب / النابغة الجعدى - حياته وشعره / ٥٤٢ .

٢٤- من الذين لايزالون يقولون بعداوة الإسلام للشعر أو على الأقل بعدم ارتياحه له د. محمد عبدالعزيز الفكراوى (الشعر العربى بين الجمود والتطور / دار نهضة مصر / القاهرة / ط ٢ / ٤٣) ، وسلمى خضراء الجيوسى ، التى تكاد آراؤها تتفق مع آراء د. الكفراوى وبخاصة في تحليلها للآيات الأخيرة من سورة « ص » التى تتحدث عن الشعر والشعراء . انظر دراستها « Early Islamic Poetry » فى كتاب : Arabic Literature to the End of the Umayyad Period , Cambridge University Press , 1983 , pp. 390 - 391 . واللافت للنظر أنه بينما تقول هذه الباحثة العربية ذلك الكلام نجد نيكلسون ، المستشرق البريطاني ، ينفى قبلها بعشرات كثيرة من السنين العداوة المدعاة المنسوبة للرسول عليه السلام ضدّ الشعر كفن أدبى . انظر كتابه A literary History of the Arabs , Cambridge Univ. Press , 1979 , p. 235 . وبالمناسبة ، فقد ردّ العلماء العرب القدامى على هذا الزعم منذ قرون بعيدة . ومن هؤلاء ابن رشيق فى « العمدة » (١ / ٢٧ - ٣٢) ، وأبو هلال العسكرى فى « الصناعتين » (الآستانة / ١٣٢٠ هـ / ١٣٢) .

٢٥- انظر كتابه « تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى » / دار الثقافة / الدار البيضاء / ١٩٨٢ م / ١١٣ - ١١٤ .

٢٦- د. محمد عبدالعزيز الكفراوى / الشعر العربى بين الجمود والتطور /٤٤ -٤٥ . وقد قفز الأستاذ الدكتور لهذا السبب فوق عصر صدر الإسلام فلم يحاول أن يدرس أى شىء من شعره .

٢٧- د. عبد القادر القط / فى الشعر الإسلامى والأموى / مكتبة الشباب / القاهرة / ١٩٨٢ م / ١٢ - ١٣ .

٢٨- د. عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى / ١ / ٢٥٧ . وقد ادعى د. سامى مكى العانى أن فروخ ينفى مقولة ضعف الشعر الإسلامى . انظر كتابه « الإسلام والشعر » / ٢١ .

٢٩- د. عباس الجرارى / مــن أدب الدعوة الإسلامية / دار الثقافة / الدار البيضاء / ط ٢ / ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م / ٣١ - ٣٢) .

٣٠- انظر كتابه « الشعراء المخضرمون »/ الهيئة المصرية العامة للكتاب /١٩٨٣م/ فصل « الدين والشعر » (ص ٢٧ - ٣٣) .

31- Arabic Literature to the End of the Umayyad period , pp. 391-392 .

٣٢- حياة الشعر فى الكوفة / دار الكتاب العربى / القاهرة / ١٩٦٨ م / ٦٥٦ .

٣٣- حسان بن ثابت / دار المعارف / ١٩٦٥ م / ١٧ .

٣٤- حسان بن ثابت / ٧٧ .

٣٥- الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام / دار الكتاب اللبنانى / بيروت /١٦٣ .

٣٦- انظر « دراسات في الأدب العربى » / ترجمة د. كمال اليازجى / بيروت / ١٩٥٩ م / ١٤١ - ١٤٢ .

٣٧- انظر ابن عبد البر / الاستيعاب / المطبعة الشرقية / القاهرة / ١ / ٣٣٨ .

٣٨- انظر تلك الأبيات في « شرح ديوان كعب بن زهير » لأبى سعيد السكرى / الدار القومية للطباعة والنشر / القاهرة / ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م / ٢٥ .

٣٩- السابق / ٤١ وما بعدها .

٤٠- السابق / ٢٥١ وما بعدها .

٤١- شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم / دراسة وتحقيق د. سعود محمود عبد الجبار / مؤسسة الرسالة / بيروت / ط ١ / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م / ٤٦ ومابعدها .

٤٢- السابق / ٤٢ ومابعدها .

٤٣- السابق / ٨١ - ٨٢ .

٤٤- السابق / ٦٥ - ٦٦ ، ١٠٠ .

٤٥- انظر د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان / العباس بن مرداس السلمى الصحابى الشاعر / دار المريخ / الرياض / ط ١ / ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م / ٧٥ .

٤٦- السابق / ١٣٢ .

٤٧- السابق / ٣٩ - ٤٠ .

٤٨- ديوان الخنساء / دار الأندلس / بيروت / ط ٩ / ١٩٨٣ م / ٤٥ . ويمكن العثور على مراث أخرى لها إسلامية ص ٤٢ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٣١ .

٤٩- شعر عمرو بن معديكرب الزبيدى / جمع وتحقيق مطاع الطرابيشى / مجمع اللغة العربية بدمشق / ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م / ٩٩ - ١٠٠ .

٥٠- السابق / ١٠٢ ، ١٢٦ .

٥١- ديوان معن بن أوس المزنى / صنعة د. نورى حمود القيسى وحاتم صالح الضامن / دار الجاحظ / بغداد / ط ١ / ١٩٧٧ م / ٣٧ - ٣٨ . وانظر في إسلامية القصيدة مقدمة الديوان / ص ٦ ، وكذلك البيت التاسع عشر والبيت الثانى والثلاثين وكذلك السابع والأربعين من القصيدة .

٥٢- وحتى لو تم الاتفاق على ذلك فإنها تكون شاهداً آخر على أن كثيرا من الشعر بعد الإسلام يشبه شعر الجاهلية ، ومن ثم تكون حجة الأصمعى داحضة .

٥٣- الديوان / ١٠٥ - ١٠٦ .

٥٤- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصارى / وضع عبد الرحمن البرقوقى / المكتبة التجارية الكبرى / القاهرة / ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٩ م /١.

٥٥- الديوان / ١٣٣ .

٥٦- الديوان / ٢٤٨ ومابعدها .

٥٧- من الذين رددوا إلى حدّ كبير رأى الأصمعى في شعر حسان : عمر رضا كحالة ،

إذ قال إن « شعره الجاهلى أقوى من شعره الإسلامى لتغير البيئة عليه وارتجاله وكثرة ما قال وتقيده بحدود الدين وترك معاييره القديمة وكثرة ماحُمِل عليه » . ومع ذلك فقد استدرك بأن له بعض قصائد إسلامية جيدة . انظر كتابه « الأدب العربى فى الجاهلية والإسلام » / المطبعة التعاونية / دمشق / ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م / ٨٦ .

٥٨- الديوان / ٣٢٤ - ٣٢٥ .

٥٩- الديوان / ٣٧٢ ومابعدها .

٦٠- الديوان / ٣٧٦ ومابعدها .

٦١- الديوان / ٣٨٣ ومابعدها .

٦٢- الديوان / ٣٨٥ ومابعدها .

٦٣- الديوان / ٣٩٨ .

٦٤- انظر « مقدمة ابن خلدون » / دار الشعب / القاهرة / ٥٥٤ .

٦٥- انظر مقدمته لديوان حسان بن ثابت / أ مكررة .

٦٦- العصر الإسلامى / ٤٣ ، ٤٦ ، ٨١ ، ٩٢ .

٦٧- د. سامى مكى العانى / الإسلام والشعر / ٢٥ - ٢٦ .

٦٨- د. صلاح الدين الهادى / الأدب في عصر النبوة والراشدين / مكتبة دار العلوم / القاهرة / ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م / ٢٦٦.

٦٩- ولست معه في رأيه الآخر الذى يصف فيه شعر النابغة بأنه كان مختلفاً ، يشير إلى ماقاله الفرزدق .

٧٠- انظر « شعر النابغة الجعدى » / ١٢٣- ١٢٧ ، وهامش ٥ من صفحة ١٢٦ ، والأغانى / ٤ / ١٣٢ - ١٣٣ .

٧١- الجمهرة / ١ / ٢٢٠ . والشعراء الستة الآخرون هم كعب ، والقطامى ، والحطيئة ، والشماخ ، وعمرو بن أحمر ، وتميم ابن أُبىّ بن مُقْبِل .

٧٢- الجمهرة / مقدمة المحقق / ١ / ٣٧ . وقد قال د. عز الدين إسماعيل بشىء مثل هذا هو أيضا . انظر كتابه « المصادر اللغوية والأدبية فى التراث العربى » /

دار النهضة العربية / بيروت / ١٩٧٦ م / ٨٣ / هامش ٢ .

٧٣- السابق / ١ / ٢١٩.

٧٤- السابق / ١ / ٢١٩ - ٢٢٠ .

٧٥- السابق / ١ / ٢٢٠ .

٧٦- سبق أن قلت رأيى في الشعر الذى يدور على وصف الخيول والنوق ، فهذا الجزء من القصيدة لايجد عندى تجاوبا نفسيا .

٧٧- أخذت هنا بالرواية الثانية لهذه القصيدة فى « شعر النابغة الجعدى » ، وهى تختلف قليلا عن الرواية التى أخذت بها من قبل . وكانت « مَنَاصِفُه » هناك « مُناصَفَة » .

٧٨- الموشح / ٨٩ - ٩٠ .

٧٩- انظر « شعر النابغة الجعدى » / هـ (فقرة ٣) ، ٣٣ .

٨٠- الموشح / ٩٣ .

٨١- نفس المرجع والصفحة .

٨٢- انظر « الكامل » للمبرد / تحقيق زكى مبارك وأحمد شاكر / ط البابى الحلبى / ٥١١.

٨٣- فى دراسة د. خليل إبراهيم أبوذياب « النابغة الجعدى - حياته وشعره » ، التى وقعت فى يدى بعد الانتهاء من هذا البحث ، نجده يورد عدداً من هذه الانتقادات موافقا عليها (ص ٥٤٦ ومابعدها) .

٨٤- الموشح / ٩١ - ٩٢ .

٨٥- الأغانى / ٤ / ١٣٢ - ١٣٣ .

٨٦- انظر « الأغانى » / ٤ / ١٣١ - ١٣٢ ، وشعر النابغة الجعدى / ٩٩ - ١٠٠ (بالهامش) .

٨٧- انظر مثلا « العصر الإسلامى » للدكتور شوقى ضيف / ١٠٢ ، ومقدمة محقق شعر النابغة / ص ، و « تاريخ الأدب العربى » للدكتور عمر فروخ / ١ / ٣٤٣ .

السمات الفنية فى شعر النابغة

أبدأ هذه السمات بِما أشرتُ إليه مِن قبل من أن مقدمة إحدى قصائد النابغة تبدو لى غريبة أو شبه غريبه وسط مقدمات الشعر الجاهلى ، إذ لم يجعلها الشاعر فى الأطلال ولا فى النسيب ولا فى الخمر مثلاً ، بل أدارها على الحكمة والتأمل فى أحوال الحياة وصروف الدهر ، وهى القصيدة التى مطلعها :

خليلـــىّ ، عوجـــا ساعـــة وتهجـــرا ولوما على ما أحدث الدهر أوْ ذَرَا (١)

وحتى عندما يقف فى قصائده على الأطلال لا تكون هذه الأطلال دائما أطلال حبيبته وقومها ، ففى قصيدته اللامية التى تبدأ بقوله :

لمـــن الـــدار كأنضـــاء الخِلَـــلْ عَهْدُهـا مـــن حقب الدهر الأُوَل (٢)

نجد أن الدار هى دار قومه ، الذين أدركهم (كما يقول) عنت الدهر وخَبَلُ العيش ، والذين يأخذ فى الحديث عن أمجادهم القديمة قبل أن تنيخ عليهم بكلكلها الأيام ، ويبدى أساه الشديد لما نزل بهم (٣) . فهى من المقدمات التى تبدو مخالفة للتيار العام فى ذلك العصر . يقول :

لمـــن الـــدار كأنضـــاء الخلَـــلْ عهدُهـا مـــن حِقَـب الدهـــر الأُوَلْ
دار قومـــى قبـــل أن يدركهـــم عنـــت الدهـــر وعيـــشٌ ذو خَبَـــلْ
إذ همـــو مـــن خيـــر حـــىّ سُوقَةً وطـــىء الأرض بسهـــل أو جَبـــل

لغريب قام فيهم سائلا ولجارٍ جُنُب جا ، فحلّ
يستخفون إلى الداعي بهم وإلى الضيف إذا الضيف نَزلْ
هزة النائل فيهم والندى وثقالٌ عند أطراف الأسلْ

....

سألتني جارتي عن أمتي وإذا ما عيّ ذو اللب سألْ
سألتني عن أناس هلكوا شرب الدهر عليهم وأكلْ
طلبوا المجد فلما أدركوا لكتابٍ وانتهى ذاك الأجل
وضع الدهر عليهم بَرْكَهُ فأراه لم يغادر غير فَلّ
وأراني طَرِباً في إثرهم طرب الواله أو كالمختبل

وهناك قصيدة أخرى ربما كانت مقدمتها هي أيضا من شكل هذه المقدمة ، وهي القصيدة الثانية عشرة في شعر الشاعر ، والتي تبدأ بالبيت التالي :

ألم تسأل الدار الغداة : متى هيا ؟ عددتُ لها من السنين ثمانيا (٤)

ذلك أن الشاعر يباهي بأهل هذه الديار ، ويشبههم بالملوك العظام ، ويصفهم بالوقار والتغلب على الأعداء والرجولة والأريحية . ومثل هذا الكلام إنما يقوله الشعراء عادة في قومهم لا في أهل حبيبتهم . ثم هو فوق ذلك يأسى على ما أصابهم الدهر به ، مثلما فعل في المقدمة السابقة . فلهذا لا أستبعد أن تكون هذه المقدمة من نوع تلك .

ويتكرر في شعر النابغة الإشارة إلى هلاك أهله وأصدقائه :

وقالت سليمى : أرى رأسه كناصية الفرس الأشهبِ

وذلـــك مـــن وقعـــات المنـــون ففينـــى إليـــك ولاتعجبـــى
أتيـــن علـــى إخوتـــى سبعـــة وعُـــدْنَ علـــى ربْعِـــى الأقـــرب
وســـادة رَهْطِـــىَ حتـــى بقيـــتُ فـــردا كصِيصِيَـــة الأعْضَـــبِ

....

أصابهـــم القتـــل ثـــم الوفـــاةُ هـــذً الإشـــاءة بالمِخْلَـــبِ
مضـــوا سلفـــا ثـــم لـــم يرجعوا إلينـــا ، فيالـــك مـــن موكِب ! (٥)

***

تذكـــرتُ والذكرى تهيـــج لذى الهوى ومـــن حاجـــة المحـــزون أن يتذكـــرا
ندامـــاى عنـــد المنـــذر بـــن محـــرق أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفرا(٦)

***

لمـــن الديـــار كأنضـــاء الخِلَـــلْ عهدهـــا مـــن حقـــب الدهـــر الأُوَلْ ؟
دار قومـــى قبـــل أن يدركهـــم عنـــتُ الدهـــر وعيـــشٌ ذو خَبل (٧)

***

عهـــدتُ بهـــا الحـــىّ الجميـــع كأنهم عظـــامُ الملـــوك عـــزَّةً وتباهيـــا
غـــدا فتيـــا دهـــر فمـــرّا عليهمو : نهـــارٌ وليـــلٌ يلحقـــان التواليـــا (٨)

كما تكرر عنده ذكر الموت :

المـــرء يرغـــب فـــى الحيـــاة ، وطـــول عيـــش قـــد يضرُّهْ

....

كـــم شامـــت بـــى إن هلكـــتُ وقائـــل : للـــه درُّهْ (٩)

***

إذا المـــرء عَلْبَى ثـــم أصبـــح جلْدُهُ كرَحْـــضِ غسيـــل فالتيمُّن أروح (١٠)

***

تـــرى الغصـــن فـــى عنفـــوان الشبـــاب يهتـــزّ فـــى بهجـــاتٍ خُضُـــرْ
زمانـــا مـــن الدهـــر ثـــم التـــوى فعـــاد إلـــى صفـــرةٍ فانكســـرْ (١١)

شيخ كبير قد تخدد لحمُهُ   أفنى ثلاث عمائمٍ ألوانا

ثم المنيّة بعد ذلك كله   وكأنما يُغنى بذاك سوانا (١٣)

وأغلب الرأى أن هذه الأشعار قد قيلتْ فى شيخوخة الشاعر ، عندما أحس بالحياة تتسرب من بين أصابع يديه ، وأهله وأحباؤه يتساقطون ويخلّفونه وراءهم يقاسى وحشة التفرد . ومثلها أشعاره فى المشيب :

وقالت سليمى : أرى رأسه   كناصية الفرس الأشهبِ (١٤)

***

إمّا ترَىْ ظُلَلَ الأيام قد حسرتْ   عنّى وشمّرتُ ذيلا كان ذيّالا

وعمّمتنى بقايا الدهر من قُطُنٍ   فقد أُنضّجُ ذا فِرَقَيْن ميّالا (١٥)

***

فلا هى ترضى دون أمرد ناشىءٍ   ولا أستطيع أن أرد شبابيا

وقد طال عهدى بالشباب وأهله   ولاقيتُ روعاتٍ يُشِبْن النواصيا (١٦)

***

ومارابها من ريبةٍ غير أنها   رأت لمّتى شابت وشاب لداتيا (١٧)

هذا ، وقد سبق أن أوردنا له أشعاره التى يتحدث فيها عن استطالة عمره (١٨) .

وفى شعر النابغة يقابلنا مرارا حوار بين الشاعر وإحدى النساء :

وقالت سليمى : أرى رأسه   كناصية الفرس الأشهبِ

وذلك من وقعات المنون   ففيئى إليك ولاتعجبى (١٩)

***

وفى شعر النابغة يقابلنا مرارا حوار بين الشاعر وإحدى النساء :

وقالـــت سليمـــى : أرى رأســـه كناصيـــة الفـــرس الأشهـــبِ
وذلـــك مـــن وقعـــات المنـــون ففيئـــى إليـــك ولاتعجبـــى (١٩)

***

سألتنـــى جارتـــى عـــن أُمّتـــى وإذا ماعـــىّ ذو اللـــب ســـألْ
سألتنـــى عـــن أنـــاس هلكـــوا شـــرب الدهـــر عليهـــم وأكـــل
طلبـــوا المجـــد فلمـــا أدركـــوا لكتـــابٍ وانتهـــى ذاك الأجـل (٢٠)

***

دعـــى عنـــك تهجـــاء الرجال وأقبلى على أذلغـىّ يملأ استك فَيْشَلا (٢١)

***

تلـوم علـى هـلك البعيـر ظعينتى وكنـتُ علـى لـوم العـواذل زاريـا
ألـم تعلمـــى أنـــى رُزِئْـــتُ محاربـا فما نكِ منه اليوم شىء ولا ليا؟(٢٢)

***

باتـــت تذكّرنـــى باللـــه قاعـــدة والدمـــع ينهـــلّ مـــن شأنيهمـا سَبَلا
يـا ابنـــه عمّـى ، كتاب الله أخرجنى كرها، وهل أمنعنّ الله مافعلا؟ (٢٣)

***

قالــت أمامــة : كــم عمــرت زمانة وذبحــتَ مــن عِتــرٍ علـى الأوثـان ؟
ولقــد شهــدتُ عكــاظ قبــل مَحِلّهـا فيهــا ، وكنــتُ أُعَــدُّ م الفتيان (٢٤)

وقد تناول الشاعر أربع مرات على الأقل وصف ريق الحبيبة ، وشبه نكهته برائحة النباتات العطرية وطعم العسل والخمر :

كـــأن القرنفـــل والزنجبيـــــل يُعَـــلُّ علـى ريقهـا الأطيـبِ (٢٥)

***

كـــأن فاهـــا إذا تبســم مـــن طِيـــبِ مشـــمٍّ وحـــن مُبْتَسَـــمِ
يُســـنُّ بالضَّـــرْوِ مـــن برأفـــش أو هيـــلانَ أو ضامـــرٍ مـــن العُتُم (٢٦)

***

وكـــأن فاهـــا بـــات مغتبقـــا بعـــد الكـــرى مـــن طيـّــب الخَمـــرْ
شَرِقـــاً بمـــاء الـــذوب أسلمـــه بالطـــود أيْمَنُ من قرى النَّسْـــرِ (٢٧)

***

فمـــا نُطْفَـــةٌ كانـــت صبيـــر غمامـــةٍ علـــى مَتـْــن صفـــوانٍ تزعزعـــه الصَّبـــا
علـــى مَجـَّـةٍ مـــن صفـــو أرْيٍ أتـــى بها حريـــصٌ يـــرى فـــى الحـــقّ أن يتكسبـــا
بأطيـــب مـــن فيهـــا ولا طعـــم ريقها إذا النجم أصغى للمغيب وصوّبا (٢٨)

ومن سمات شعر الجعدى كذلك ما نعثر بين الحين والحين فيه من عرى وهجاء مقذع ممّا تكررت إشارتنا له فيما سلف بما يغنينا عن إعادة القول فيه هنا (٢٩) .

كما وجدته فى بعض المواضع يضمّن الأمثال :

وبعـــض الأخـــلاء عنـــد البـــلا ء والـــرزْء أروغ مـــن ثعلـــبِ (٣٠)

***

وإن امـــرأً أهـــدى إليـــك قصيـــدةً كمستبضعٍ تمرًا إلى أرض خيبرا (٣١)

***

فقلتُ لهـــا : عيثى جَعَارِ ، وجَرِّرى بلحم امرىء لم يشهد اليومَ ناصُره(٣٢)

وهنـــاك اقتباســـات من القرآن فـــى شعره المتبقى لنـــا تبلغ العشرة . وهذه بعضها :

فلمـــا قضيتـــم كـــل وتـــرٍ ودِمْنـــةٍ وأدرككم نصرٌ من الله مُعْجِبُ (٣٣)

***

فأصبح فـى النـاس كالسامـرى إذ قـال موسى له : لامسـاسـا (٣٤)

***

إن يـك ضـاع ماحملـتُ فقـد حملتُ إثما كالطود من إضَمِ (٣٥)

***

كـأن زفيـر القـوم مـن خوف شرّه وقـد بلغـت منـه النفـوسُ التراقيا

زفيـر متـمّ بالمثيّـإِ طرّقـت بكاهلـه فـلا يريـم الملاقيا (٣٦)

وهذا طبعاً غير قصيدته « الحمد لله لاشريك له » ، فهى مملـوءة بالألفـاظ والعبارات القرآنية ، وهو لاشك من تأثير الإسـلام (٣٧) .

وتكثـر فى قصائد النابغة أسماء المواضع والأشخاص كثرة لافتة . ويجد القارىء أمثلة لهذا الملمح فى ص / ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ٢٥ ، ٦٧ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٥١ ، ١٦٢ ، ١٨٠ ، ١٨٦، ١٩٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ من الديوان .

ومن آن لآن نفاجأ بلفظة حوشية قد ماتت بل ماتت حتّى صيغتها ، مثل : « يوم أرونانىّ » ، أى صعب (٣٨) ، وكذلك « عيطموس » فى البيت التالى وصفا للناقة ، ومعناه : الفتيّة العظيمة الحسناء :

سَديسٌ لَدِيسٌ عيطمـوس شِمِلّـةٌ تُبارُ إليها المحصناتُ النجائبُ (٣٩)

و « مُحْرَنبِىء » (٤٠) ، أى الـذى يُبَيّـت لداهيـة فـى نفسـه ، و« عَشَمّـَم » (٤١) ، أى الجمـل القـوى الشديـد ،

و « هُنَّباء » (٤٢) ، أى المرأة الحمقاء . ولكن هذه هى تقريبا كل الألفاظ التى من هذا النوع فى شعر الشاعر ، فهو مقلّ من حوشىّ الكلام .

وفى شعر النابغة ، كما هو الحال عند كثير من شعراء ذلك العصر ، تتردد كلمة « أبلغ (كذا إلى فلان) » أو مافى معناها . ويمكن وجود بعض الشواهد على تلك اللفظة فى ص / ٧ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ٢١١ ، ٢٣٤ من ديوانه .

ويكثر الطباق والمقابلة كثرة ملحوظة . ويجد القارىء أمثلة على ذلك فى ص/ ٢٦ ، ١١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١ . وبالمناسبة فإن الصفحة الواحدة كثيرا ماتضم عدة طباقات .

ويتكرر عند النابغة قوله إنه لولا كذا لفعل كذا وكذا . وعادة مايكون السبب المانع له من فعل الشىء قيمة كريمة ، كالتقوى أو صلة الرحم مثلاً . وقد يكون التعبير بـ « لولا » أو بكلمة فى معناها :

أبى لى البلاءُ وأنى امرؤ   إذا ماتبيّنْتُ لم أرتَبِ (٤٣)

***

ملكنا فلم نكشف قناعا لحرةٍ   ولم نستلب إلا الحديد المسمّرا

ولو أننا شئنا سوى ذاك أصبحت   كرائمهم فينا تباع وتُشْتَرَى

ولكن أحسابا نمتنا إلى العلا   وآباء صدق أن نروم المحقّرا (٤٤)

***

منع الغَدْر ، ففلم أهمِمْ به | وأخو الغدر إذا همّ فَعَلْ
خشيةُ الله وأنى رجُلٌ | إنما ذِكْرِى كنارٍ بِقبَلْ (٤٥)

***

يا ابن الحيا ، إننى لولا الإله وما | قال الرسولُ لقد أنسيتُك الخالا
لقد وسمتُك وسما لايغيِّبه | ثوباك يبرق فى الأعناق أحوالا (٤٦)

***

فلولا أن تَغْلبَ رهطُ أمّى | وكعبٍ ، وهو منّى ذو مكانِ
تراجَمْنا بصدر القول حتى | نصير كأننا فرسا رهانِ (٤٧)

***

لولا ابن حارثةَ الأميرُ لقد | أغضيتَ من شتمى على رَغْمِ (٤٨)

وفى شعر النابغة لون من التكرار يقوم على ذكر اللفظة أوّلاً مفردة ثم ذكرها بعد ذلك مضافة (٤٩) :

ومنْ دون ذاك هُوِىٌّ له | هوىَ القُطامىَ للأرنبِ (٥٠)

***

فلمّا دنا للخرج خرج عُنَيْزَةٍ | وذى بقرٍ ألقى بهن المراسيا (٥١)

***

هديرٌ هدير الثور ينفض رأسه | يذُبّ بروقيه الكلاب الضواريا (٥٢)

***

أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى | دجى الليل جَوّابُ الفلاة عَثَمْثَمُ (٥٣)

***

لا أخدع البوَّ بَوَّ الزّعم أرْأمُه | ولا أُقيم بدار العجز والهُونِ (٥٤)

***

رأيتَ البكْر بَكْرَ بنى ثمودٍ وأنت أراك بكْر الأشعرينا (٥٥)

***

أقفرت منهم الأجاربُ فالنّهْـ ـىُ وخبْطَى فروضةُ الأذْحالِ
فَحُبَىٌّ فالثغر فالصفح فالأجـ ـداد قفرٌ فالكُور كورُ أُثالِ (٥٦)

وثمة تركيب تردَّد عدة مرات فى شعر النابغة يقوم على النفى المزدوج ويتخذ غالبا الشكل التالى : « لا ... ولا ... » :

جَوْن كَجَوزْ الحِمار جرّده الـ ـخرّاس لا ناقسٍ ولاهَزِمِ (٥٧)

***

فلا هى ترضى دون أمرد ناشىء ولا أستطيع أن أردّ شبابيا (٥٨)

***

وحلت سواد القلبِ لا أنا باغيا سواها ولا عن حبها متراخيا (٥٩)

***

ألم تعلمى أنى رُزئتُ محاربا فمالك منه اليوم شىءٌ ولا ليا (٦٠)

***

ولم يُمْسِ بالسيدان نَبْخٌ لنامع ولاضوءُ نارٍ إن تنوّر راكبُ (٦١)

***

دار حىٍّ كانت لهم زمن التو بة لاعُزّلٍ ولا أكفالِ (٦٢)

***

لاضُلالٌ ولاعواوير خَتـ ـلون يوم الخِطابِ للأثقالِ (٦٣)

وعند النابغة عدد طيب من التعبيرات والصُّور الطازجة . ومن ذلك « الموت الصُّهابى » و « الشرّ العريان » :

فجئنا إلى الموت الصُّهابىّ بعدما تجرد عريانٌ من الشرّ أحْدبُ (٦٤)

وكذلك العبارة التى تصور الرنين العميق والضخم لصهيل حصان وكأنه خارجٌ لا من صدره ، بل من جوف بئر عميق :

ويصْهل فى مثل جوف الطوى صهيلاً يبيّن للمُعْرِبِ (٦٥)

ولعل جريرا قد استهلم هذه الصورة فى قوله :

يَشْتَفْنَ للنظر البعيد كأنما إرنانها ببوائن الأشطان (٦٦)

ولنتأمل أيضا الصورة التى فى البيت الأخير من الأبيات الثلاثة الآتية ، حيث يشبه الشاعر بربرة ثور وحشى ببربرة رجل من الروم ضُرِب على ظهره ضربا مبرحا دون جريرة فأخذ يتوسل ويجأر طالباً النجدة :

فهايجها (٦٧) حمْش القوائم سابحٌ رعى بِجواء الجِنّ بالصيف أشهرا
أتيح لها من أرضه وسمائه فلما رآها مطلع الشمس بربرا
كبربرة الرومى أُوجع ظهره على غير جُرْم فاستضاف لِيُنْصَرا (٦٨)

وكذلك وصفه الأرض بأنها « بلاد اللّه » ، وهو نفس التعبير الذى تستعمله الآن لغتنا العامية فى قولنا : « بلاد الله . خلق الله » . فهذه النكهة الشعبية تكسبه حلاوةً ولطافة :

فسر فى بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتُعْذرا (٦٩)

ولاجَرَم أن وصفه للهَلْكَى من أهله بأن الدهر قد شرب عليهم وأكل هو من الصور الرائعة . صحيح أننا نستخدم الآن هذا التعبير دون أن نلتفت إلى مافيه من خيال ، وذلك لكثرة دورانه على الألسن وأسلات الأقلام ، ولكننا لو خرجنا من طوق الإلف الحديدى

ونظرنا إليه بتأنّ لبان لنا تعبيرا جميلاً موحيا مؤثرا . إن تصوير الدهر وقد تربع عليهم وأخذ يأكل ويشرب على راحته ولايبالى سقوط فتات الخبز وبقع الإدام والدسم عليهم لهو من وثبات الخيال :

سألتنى عن أناس هلكوا   شرب الدهر عليهم وأكَلْ (٧٠)

ومثل هذه الصورة طرافةً قوله يصف مشيب رأسه :

وعمّتنى بقايا الدهر من قُطُنٍ   فقد أُنضِّج ذا فِرْقين ميّالا (٧١)

حيث شبه شعره الأبيض بالقطن ، وهو تشبيه لا أذكر أنى قابلته فى هذا السياق فى شعر ذلك العصر .

كذلك فإن فى قوله « ممن لا تَعُدّ » فى البيت التالى :

من الجنود وممن لا تَعُدُّ ، فلا   تفخر بما كان فيه الناس أمثالا (٧٢)

خروجا على المألوف من قولهم : « لايُعَدّ ولايُحْصَى » . إن التحوير فى العبارة يبدو ضئيلا لاقيمة له ، لكن تحويل الكلام من صيغة المبنى للمجهول إلى المعلوم وإسناده بالذات إلى ضمير المخاطب قد أكسب الكلام حيويّة وجعل القارىء أو السامع جزءاً من الكلام ، أو كما نقول الآن : وضعه فى قلب الصورة ، وصار الكلام بذلك ذا خصوصية بعد أن كان عاما مجردا .

وأيضا فإن وصفه ليوم عصيب أوقع قومه فيه بأعدائهم فى إحدى المعراك بأنه « يَوْم ... غير ذى متنفَّس » هو من الأوصاف النابضة الغنية ، إذ هو وصف قابل لأكثر من تفسير : فقد يكون

المعنى أن أحداً لايستطيع التنفس فيه ، إذ إن حرّ الحرب وثقل الهزيمة وما أصاب نفوس الأعداء فيها من غمّ وذلة قد كظم الأنفاس ، أو أنهم من رعبهم قد حبسوا أنفساهم توجُّساً من المصائب التى يتوقعون سقوطها على رؤوسهم وهيبةً لقوم الشاعر .

ومما يخلع على العبارة مزيداً من الطرافة استخدام الشاعر للمصدر الميمى « متنفّس » ، وهو مصدر قليل الاستخدام وبخاصة مع الأفعال المكونة من أكثر من ثلاثة أحرف ، بدلاً من المصدر العادى : « تنفُّس » . يقول النابغة :

ويـومٍ شديـدٍ غيـر ذى مُتَنَفَّـسٍ أصمّ على من كان يُحْسَبُ راقيا (٧٣)

وفى الشعر العربى القديم كنايات متعددة للدلالة على التأبيد ، مثل : « ماحنّت ورقاء » و « ما أقام ثهلان / ثبير / عسيب » (٧٤) . و « ما أهلّ الحجيجُ ولبّوا » ... إلخ . أمّا قول النابغة : « ماغرد راكب » فيبدو لى شيئاً طريفًا :

تعالـوا نُحالـف صامتـاً ومزاحمـا عليهـم نصـاراً ماتغرّد راكبُ (٧٥)

هذا ، وفى البيت التالى صورة ما أبدع ! وما أروع ! :

بـالأرض أستاههـم عَجـْزاً وأنفهمـو عند الكواكب بغيا . يا لَذَا عجَبَا (٧٦)

ولا أحسب هذا الكلام محتاجا من جانبى إلى تعليق .

وقد تكرر عند النابغة استمداده الصورة من عالم الملابس :

تردّيـتُ ثـوب الـذل يـوم لقيتُهـا وكـان ردائـى نخـوةً وتجبُّرا (٧٧)

***

إذا مـا الضجيـع ثنـى جيدهـا تثنّـت عليـه فكانـت لباسـا (٧٨)

***

فالحمـد للـه إذ لـم يأتنـى أجلـى حتى لبستُ من الإسلام سربالا (٧٩)

***

لقـد وسمتُـك وسمـاً لايغيّبُـه ثوباك يبرق فى الأعناق أحوالا (٨٠)

***

لو تستطيعـون أن تُلْقُـوا جلودكمـو وتجعلوا جلد عبد الله سربالا (٨١)

***

ولبست م الإسـلامِ ثوبـا واسعـا مـن سيـب لاحَـرِمٍ ولامنّانِ (٨٢)

وفى غير قليل من الأحيان يلجأ النابغة الجعدى فى وصفه لمنظرٍ أو موقفٍ ما إلى إيراد بعض التفاصيل التى تجعل الصورة تكاد تنطق . ومن هذا قوله فى وصف معركة دارت بين قبيلته وأعدائهم :

بِطَعْـنٍ كتشهـاق الجِحـاش شهيقُـه وضربٍ لـه مـاكان من ساعدٍ خلا
فلـم أر يومـا كـان أكثـر باكيـا ووجهـا تـرى فيـه الكآبـة مجتلى
ومُنْتَصَـلاً عـن شـدى أُمّ تحبّـه عزيـز عليهـا أن يفارقـن مُقْتَلى
وأشمـط عريانـا يُشَـدُّ كِتافُـه يُلام على جهد القتال وما ائتلى (٨٣)

ومثل ذلك تصويره التالى لرحيل القبيلة حيث يذكر الأصوات المختلفة من غناءٍ ونداءٍ للإبل ونقر وحُداء ، حتى ليخيل للسامع أو القارىء أنه يسمع بأذنيه هذا كلّه ويشاهد رحيل القبيلة بأم عينيه . ولاينبغى أن نسهو عن استخدامه لضمير المخاطب هنا أيضا :

إذا ظعنـوا يومـا سمعت خلالهم غنـاءً وتأييهـا ونقـرا وحاديـا

ورنــــّة هتّـــاف العشـــىّ مكبّــل   ينازعه الأوتارَ من ليس راميا (٨٤)

ويجرى فى نفس الطريق البيت التالى :

ولـم يُمْـسِ بالسيـدان نبحٌ لسامعٍ   ولاضـوء نـارٍ إن تنـوّر راكبُ (٨٥)

وإن من أمتع اللوحات الشعرية هذه اللوحة التى تعرض علينا صورة أحد خصوم قبيلة الشاعر متروكة جثته فى العراء إثر المعركة طعاما للضباع وقد انحشرت فى إليته الحربة التى قُتل بها وانكسرت فى جسده قناة الرمح التى سُدِّدت إليه :

تركـــوا عمـــران مجنـــدلاً   لضبـــاع حوْلـــه رزَمـــه

فـــى صَـــلاهُ ألَّـــةٌ خُشُـــرٌ   وقنـــاة الرمـــح مُنقَصِمَـــه (٨٦)

إن هذه التفصيلات لها كل الخطر فى الشعر والأدب . إنها تجسّم المشهد وتنفخ فيه الحياة .

وفى النابغة بساطة فى التعبير عن مشاعره دون تحرّج ، فهو يقول مثلاً إنه إذا لم يستطع أن يرى حبيبته فإنه يجد شفاء نفسه فى رؤية أى من جيرانها . إن سعادته فى الحب تتحقق بأدنى ملابسة :

تقضّــى زمان الوصــل بينى وبينها   ولم ينقضِ الشــوق الـذى كـان أكبرا

وإنــى لأستشفــى برؤيــة جارهــا   إذا ما لقاؤهــا علــىَّ تعــذّرا (٨٧)

وإذا طالبهم أعداؤهم أن يردوا الروح فيمن قتلوهم منهم أخذ الأمر بجدّ ، وكان جوابه ببساطة : إننا لانستطيع أن نحيى من مات ، ولكننا نستطيع أن نميت من كان حيّا :

وقالـوا لنـا : أحيوا لنا من قتلتمو   لقـد جئتمـوا إذا مـن الأمر مُنْكَرا
ونسنـا نـردّ الـروح فـى جسم ميّتٍ   وكنـا نسلّ الروح ممن تبشّرا (٨٨)

وهو يأخذ الحياة كما هى ، ويعرف أنه متى مات فسوف يشمت به قوم ويترحم ويثنى عليه قوم آخرون ، ولايجد أية غضاضة فى أن يصرح بذلك فى شعره :

كـم شامـت لـى إن هلكـ   ـتُ وقائـلٍ : للّـه دَرُّهْ (٨٩)

وهو لايبالى أن يقول بمنتهى البساطة لزوجته ، التى كرهت أن يخرج للجهاد ويتركها والأولاد وحدهم ، أن تتخذ لها زوجاً من بعده إن لم يقدَّر له أن يعود من الميدان :

فـإن رجعـتُ فَـرَبُّ الناس يرجعنى   وإن لحقتُ بربى فابتغى بَدَلا (٩٠)

ومثله هذا التشبيه الذى يصور به من يترك من اعتدى عليه ويحاول الانتقام من غيره :

أتتـرك معشـرا قتلـوا هُذَيـْلا   وتُوعِدُنـى بِقَتْلـَى مـن جُـذَام
....
كـذى داءٍ بإحـدى خُصْيتيـه   وأخـرى ما تشكَّى مـن سَقـَامِ
ألـحّ علـى الصحيحـة فانتحاهـا   بسكّيـن لـه ذَكَـرٍ هُـذَامِ
فضـمَّ ثيابـه مـن غيـر بُـرْءٍ   علـى شعـراء تُنْقِضُ بالبِهـام (٩١)

وحين يُكْثِر خيال زوجته التى كان قد طلقها من زيارته في المنام ، وكان لايزال يحبها فيما يبدو ، لا يتورّع عن أن يقذف بما فى صدره من حمم الغضب شاتماً لاعناً متهكما بألفاظ اللغة

اليومية وعباراتها وعفويتها :

مالـى ولابنــة المجنــون تطرقنــى   بالليـل ؟ إن نهـارى منــك يكفينـى

وشــرّ حَشــو خبــاءٍ أنت مولجْـه   مجنونــةٌ هُنَبــاءٌ بنــت مجنــون
تستخبـث الوَطْـبَ لـم تَنْقُضْ مريرتَـهُ   وتقضم الحَبّ صِرْفاً غيــر مطحون (٩٢)

والطريف أن النابغة قد فعل عند ابن الزبير ما تهكم به على زوجته ، إذ يحكون (كما مرّ بنا) أنه أخذ يأكل الحَبّ صحيحاً بعد أن وسق له ابن الزبير منه أحمالاً ، وذلك من جوعه .

هذا ، وقد وجدت فى شعر النابغة أشياء تشبه أو تقارب ما فى شعر ابن أبى سلمى :

عَفَــتْ بعــد حـىّ مــن سُلَيْمٍ وعامرِ   تفانَوْا ودقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِمِ (٩٣)

***

تبصَّرْ خليلى ، هـل ترى من ظعائن   رحلـن بنصـف الليـل من بطن مُنْعِمِ
وأصبحــن كالــدَّوْم النواعــم غُــدْوةً   علـى وجهـةٍ من طاعنٍ يتوسَّمِ (٩٤)

***

أكنّـى بغيـر اسمهــا وقد علم اللــ   ـه خفيــات كــل مكتتــم (٩٥)

وأخيرا نختم هذا الفصل ببعض الملاحظات اللغوية :

إن كلمة « أكثر » فى البيت التالى ، وهى خبر لمبتدإ ، قد نُصِبتْ تجنّبا للإقواء ، وحقها الرفع :

كذاك لعمرى الدهر يومان ، فاعرفوا :   شـرٌّ وخيـرٌ ، لا بل الشرُّ أكثرا (٩٦)

والفعـل « يجعـل » فـى البيـت التـالى جاء بعد « لـن »

الناصبة ، ومع ذلك جُزم :

اذا افتخر الأزدىّ يومـاً فقـل لـهُ : تأخر فلن يجعلَ لك اللهُ مفخرا (٩٧)

واستُعملت « التقوى » فى البيت التالى مذكرة :

أقيم على التقوى وأرضى بفعلـه وكنتُ من النار المخوفة أوْجَرا (٩٨)

والمشهور استعمالها مؤنثة . ومن النصوص التى وجدتها فيها أيضا مذكّرة أول خطبة خطبها الرسول عليه السلام بالمدينة وقال فيها : « إن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عَوْنٌ صدقٍ على ماتبغون من أمر الآخرة ... وإن تقوى الله يوقّى مقته ويوقّى عقوبته ويوقّى سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ويرضى الربّ ويرفع الدرجة » (٩٩).

ويبدو لى إدخال « اللام » على كلمة « كتاب » فى البيت التالى ركيكا :

طلبـوا المجـد ، فلمـا أدركـوا لكتـابٍ وانتهى ذاك الأجل (١٠٠)

كما أن نص الشاعر فى البيت التالى على أن ابن جعفر كان مغلولاً (بل ومكبلاً أيضا) بعد أن قال فى الشطرة الأولى إن عبدالله أطلق غُلّه لامعنى له ، فهى زيادة دون داع :

وأطلق عبدُ الله غُـلّ ابـن جعفـر عُلاثَـةَ مغلـولاً يُقَادُ مكبَّلا (١٠١)

وبالمثل لم يوفق الشاعر فى البيت التالى ، إذ وضع جملة « ألا كذبوا » الاعتراضية فى موضع يغصّ بها ، علاوة على أن

تكرير « ألا » فى جملة واحدة قد جعل البيت ثقيلا :

ألا زعمت بنو كعبٍ بأنىَ - ألا كذبوا - كبيرُ السنّ فانى (١٠٢)

كذلك ففى البيت الأخير من البيتين التاليين :

فلا تنتهى أضغانُ قومِىَ بينهم وسوآتهم حتى يصيروا مواليا

موالىَ حلفٍ لاموالى قرابةٍ ولكن قطينا يُسْألون الأتاويا (١٠٣)

نراه لم ينصب « موالى » الثانية رغم أنها معطوفة على « موالى » الأولى التى هى بدل من « مواليا » الموجودة فى البيت الأول والمنصوبة خبرا لـ « يصيروا » . وهذا من ضرورات الشعر .

أما فى قوله :

ولكن أخو العلياء والجودِ مالكٌ أقام على عهد النوى والتصافيا (١٠٤)

فقد عكس الآية ، إذ نصب « التصافيا » وحقها الجرّ عطفاً على « النوى » ، التى هى مضاف إليه .

ولاحظ « الباء » الداخلة على « الفرج » فى قوله :

نَضْرِبُ بالبيض ونرجو بالفَرَجْ (١٠٥)

ولا أقول إن ذلك غَلَط ، ولكنى أحببت أن ألفت النظر إلى ذلك الاستعمال غير المألوف .

وانظر كذلك دخول الباء على الضمير بعد الفعل « اسأل » فى البيت الآتى ، وعادة مايُستعمل الحرف « عن » فى هذا الموضع :

واسأل بهم أسداً إذا جعلت حربُ العدوّ تشول عن عُقْمِ (١٠٦)

وبالمناسبة ، فقد وردت « الباء » مع الفعل « سأل » فى القرآن الكريم ، فى قوله تعالى : « سأل سائل بعذابٍ واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج » (١٠٧) . غير أن هذا غير ذاك ، فالسؤال فى الآية سؤال الاستعجال والتهكم ، لأن الكافرين كانوا يسخرون من تهديد القرآن لهم بالعذاب ويتحدون الرسول أن ينزل بهم ذلك العقاب الذى يحذرهم منه . أما فى البيت فالفعل على معناه الأصلى ، وهو الاستفسار .

وبهذا نصل إلى ختام هذه الدراسة لشاعر مُخضْرم كبير ظلمته أقوالٌ غير متأنية ولاممحصة . ونرجو أن يكون ما كتبناه قد أعطاه حجمه الذى يليق به رغم الهنات التى وجدنا فى شعره ، إذ لايخلو شعر شاعر ، بالغة ما بلغت عبقريته ، من هنات . وعلى الله التوفيق .

الهوامش

١- شعر النابغة الجعدى / ٣٥ .

٢- السابق / ٩٧- ٩٨.

٣- لعبيد الله بن قيس الرقيات قصيدة تبدأ بمقدمة مثل هذه المقدمة ، وهى القصيدة التى مطلعها :

أقفرتْ بعد عبد شمسٍ كداءُ فكـدىٌّ فالركـنُ فالبطحاءُ

(ديوان عبدالله بن قيس الرقيات / تحقيق د. محمد يوسف نجم / دار صادر ودار بيروت / ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م / ٨٧ ومابعدها) .

٤- شعر النابغة الجعدى / ١٦٦ ومابعدها .

٥- السابق / ١٣ ، ٣٣ - ٣٤ .

٦- السابق / ٦١ .

٧- السابق / ٩٧ .

٨- السابق / ١٦٩ .

٩- السابق / ١٩١ .

١٠- السابق / ٢١٨ . والتيمن : توسيد الميت يمينه في القبر .

١١- السابق / ٢١٩.

١٢- السابق / ٢٢٦.

١٣- السابق / ٢٣٩.

١٤- السابق / ١٣.

١٥- السابق / ١٠٠.

١٦- السابق / ١٧٠ .

١٧- السابق / ١٧٢ .

١٨- ويمكن للقارىء أن يجدها في ص / ٣٦ ، ٧٨ ، ١٦٠ من الديوان .

١٩- شعر النابغة الجعدى / ١٣.

٢٠- السابق / ٩٨ .

٢١- السابق / ١٢٤.

٢٢- السابق / ١٧٢ - ١٧٣.

٢٣- السابق / ١٩٤.

٢٤- السابق / ٢٠٦.

٢٥- السابق / ٣٢ .

٢٦- السابق / ١٥١ والضَّرْو : شجر طيب الرائحة يستاك به ويُجْعَل ورقه فى العطر .

٢٧- السابق / ١٨٩ .

٢٨- السابق / ٢١٣.

٢٩- يمكن الرجوع في ذلك إلى ص / ١٢٤ ، ١٢٦ ، ٢٠٢ ، ٢٣٧ .

٣٠- ص / ٢٦ .

٣١- ص / ٧٥ . وهو كقولنا الآن : « يبيع الماء في حارة السقائين » .

٣٢- ص /٢٢٠. وجعار : الضبع . والمعنى : هذه فرصة لم تكونى تطمعين فيها .

٣٣- ص / ٩ . وهو من قوله تعالى في سورة « الصف » : « نصر من الله وفتح قريب » .

٣٤- ص / ٨٣ . وعبارة « لا مساس » هى من كلام السامرى فى سورة « طه » .

٣٥- ص / ١٥٨ . وهو من قوله عزّ وجلّ : « فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا » فى سورة « النساء » .

٣٦- ص / ١٧٦ . وهو من قوله تعالى : « بلغت التراقى » في سورة « القيامة » .

٣٧- تشبهها فى ذلك قصيدة الصحابى النعمان بن بشير، رضى الله عنه ، التى مطلعها :

قد أتاكم مع النبى كتاب   صادق تقشعر منه الجلود

انظر « شعر النعمان بن بشير » / تحقيق د. يحيى الجبورى / مطبعة المعارف / بغداد /٨٩ .

٣٨- شعر النابغة الجعدى / ١٦٣.

٣٩- ص / ١٨٣ .

٤٠- ص / ١٩٦ .

٤١- ص / ٢٠٥ .

٤٢- ص / ٢٠٨ .

٤٣- ص / ٢٧.

٤٤- ص / ٧٢ .

٤٥- ص / ٩٦ .

٤٦- ص /١٠١.

٤٧- ص / ١٦٥ .

٤٨- ص / ٢٣٤ .

٤٩- هذه السمة موجودة أيضا فى شعر بشار ، الذى أنوى القيام بدراسته واستخلاص ملامحه .

٥٠- ص / ٢٣.

٥١- ص / ١٨٠.

٥٢- نفس الصفحة السابقة .

٥٣- ص / ٢٠٥ .

٥٤- ص / ٢٠٧.

٥٥- ص / ٢١٠.

٥٦- ص / ٢٣٠.

٥٧- ص / ١٥٣ .

٥٨- ص / ١٧٠.

٥٩- ص / ١٧١.

٦٠- ص / ١٧٣ .

٦١- ص / ١٨٢ .

٦٢- ص / ٢٢٩.

٦٣- ص / ٢٣٠.

٦٤- ص / ٩ . و « الصُّهابىّ » الأحمر . والمقصود « الموت الرهيب » .

٦٥- ص / ٢٣ .

٦٦- يشتفن : يتشوفن . وبوائن الأشطان : الآبار الواسعة التى لاتمسّ أشطانها (أى حبالها) جوانبها .

٦٧- هايج ذلك الثورُ البقرَ .

٦٨- ص / ٤٢ .

٦٩- ص / ٧٣.

٧٠- ص / ٩٨ .

٧١- ص / ١٠٠.

٧٢- ص / ١١٠.

٧٣- ص / ١٧٦ .

٧٤- انظر تنويع الشاعر على هذه الكناية في قوله : « ما أقام ابنا شمام » ، يقصد هضبتين في ديار قومه / ص ٢٠٠.

٧٥- ص / ١٨٥ .

٧٦- ص / ٢١٢ .

٧٧- ص / ٧١ .

٧٨- ص / ٨١ .

٧٩- ص / ١٠١ .

٨٠- نفس الصفحة .

٨١- ص / ١١١.

٨٢- ص / ٢٠٧ .

٨٣- ص / ١١٨ . والتشهاق : الشهيق . وخلا : انفصل . ومُفْتصلاً : منزوعا . ومثلها « مَفْتَلىً » . وما ائتلى : ماقصَّر .

٨٤- ص / ١٦٩ .

٨٥- ص / ١٨٢ .

٨٦- ص / ٢٠٤.

٨٧- ص / ٧٠.

٨٨- ص / ٧٢ .

٨٩- ص / ١٩٠ .

٩٠- ص / ١٩٤ .

٩١- ص / ٢٠١ - ٢٠٢ .

٩٢- ص / ٢٠٩ .

٩٣- ص / ١٣٩ .

٩٤- ص / ١٤١ .

٩٥- ص / ١٥٠ . ويلاحظ أن الفعل « يتوسم » قد كُسِرت ميمه بما يوحى أنه مجزوم ، مع أن حقه الرفع .

٩٦- ص / ٦٩ .

٩٧- نفس الصفحة السابقة .

٩٨- ص / ٧٤ .

٩٩- تاريخ الطبرى / ٢ / ١١٥ .

١٠٠- شعر النابغة الجعدى / ٩٨ .

١٠١- السابق / ١١٩ .

١٠٢- ص / ١٦٢ .

١٠٣- ص / ١٧٨ .

١٠٤- ص / ١٧٩ .

١٠٥- ص / ٢١٦ .

١٠٦- ص / ٢٣٦ .

١٠٧- المعارج / ١ - ٣ .

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم .

* ابن خلدون / مقدمة ابن خلدون / دار الشعب / القاهرة .

* ابن رشيق / العمدة / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد / المكتبة التجارية الكبرى / ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .

* ابن سلام / طبقات فحول الشعراء / تحقيق محمود شاكر / مطبعة المدنى / القاهرة .

* ابن عبد البر / الاستيعاب / المطبعة الشرقية / القاهرة .

* ابن عبد البر / الاستيعاب / المكتبة التجارية الكبرى / القاهرة .

* ابن قتيبة / الشعر والشعراء / تحقيق أحمد شاكر / دار المعارف .

* ابن ماجة / سنن ابن ماجة .

* ابن نباتة / سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / دار الفكر العربى / ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣م .

* أبو زيد القرشى / جمهرة أشعار العرب / جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية / ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

* أبو سعيد السكرى / شرح ديوان كعب بن زهير / الدار القومية للطباعة والنشر / القاهرة / ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م .

* أبو هلال العسكرى / الصناعتين / الآستانة / ١٣٢٠هـ .

* أحمد الإسكندرى ومصطفى عنانى / الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه / دار المعارف / ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م .

* الأصفهانى / الأغانى / مؤسسة عز الدين / بيروت .

* البخارى / صحيح البخارى .

* البغدادى / خزانة الأدب / المطبعة الأميرية / ط ١ .

* بلاشير / تاريخ الأدب العربى / ترجمة د. إبراهيم الكيلانى / دار الفكر / ط ٢ / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

* الثعالبى / خاصّ الخاصّ / القاهرة / ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨م .

* جرجى زيدان / تاريخ الآداب العربية / مراجعة وتعليق د. شوقى ضيف / دار الهلال .

* حنا الفاخورى / تاريخ الأدب العربى / المطبعة البولسية .

* د. خليل إبراهيم أبو ذياب / النابغة الجعدى - حياته وشعره / دار القلم (دمشق) والمنارة (بيروت) / ط ١ / ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م .

* الخنساء / ديوان الخنساء / دار الأندلس / بيروت / ط ٩ / ١٩٨٣ م .

* د. سامى مكى العانى / الإسلام والشعر / عالم المعرفة (٦٦) / الكويت / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

* السجستانى / المعمرون والوصايا / تحقيق عبد المنعم عامر / عيسى البابى الحلبى / ١٩٦١م .

* د. سعود محمود عبد الجبار / شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن

الأهتم - دراسة وتحقيق / مؤسسة الرسالة / بيروت / ط ١ / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

* السيد أحمد الهاشمى / جواهر الأدب / المكتبة التجارية الكبرى / ط ٢١ / ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

* د. شوقى ضيف / العصر الإسلامى / دار المعارف / ط ٧ .

* د. صلاح الدين الهادى / الأدب فى عصر النبوة والراشدين / مكتبة دار العلوم / القاهرة / ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م .

* الطبرى / تاريخ الطبرى / ليدن .

* د. عباس الجرارى / من أدب الدعوة الإسلامية / دار الثقافة / الدار البيضاء / ط ٢ / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١م .

* عبد الحليم الحفنى / الشعراء المخضرمون / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٨٣ م .

* عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان حسّان بن ثابت الأنصارى / المكتبة التجارية الكبرى / القاهرة / ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٩م .

د. عبد القادر القطّ / فى الشعر الإسلامى والأموى / مكتبة الشباب / القاهرة / ١٩٨٢ م .

* عبد الله بن قيس الرقيات / ديوان عبد الله بن قيس الرقيات / تحقيق د. محمد يوسف نجم / دار صادر ودار بيروت / ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .

* د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان / العباس بن مرداس السلمى الصحابى الشاعر / دار المريخ / الرياض / ط ١ / ١٣٩٨ هـ -

١٩٧٨م .

* د. عز الدين إسماعيل / المصادر اللغوية والأدبية فى التراث العربى / دار النهضة العربية / بيروت / ١٩٧٦م .

* العسكرى / المصون فى الأدب / تحقيق عبد السلام هارون / الخانجى بالقاهرة ، والرفاعى بالرياض / ط ٢ / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م .

* د. عفيف عبد الرحمن / معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين / دار العلم / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

* عمر رضا كحالة / الأدب العربى فى الجاهلية والإسلام / المطبعة التعاونية / دمشق / ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

* د. عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٤ / ١٩٨١م .

* عمرو بن معديكرب الزبيدى / شعر عمرو بن معديكرب الزبيدى / جمع وتحقيق مطاع الطرابيشى / مجمع اللغة العربية بدمشق / ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

* غوستاف فون غرونباوم / دراسات فى الأدب العربى / ترجمة د. كمال يازجى / بيروت / ١٩٥٩ م .

* المبرد / الكامل / تحقيق زكى مبارك وأحمد شاكر / البابى الحلبى .

* د. محمد إبراهيم جمعة / حسان بن ثابت / دار المعارف / ١٩٦٥ م .

* د. محمد خضر / أدب صدر الإسلام / بيروت / ١٤٠١ هـ -

١٩٨١ م .
* د. محمد طاهر درويش / حسان بن ثابت / دار المعارف / مكتبة الدراسات الأدبية رقم ٤٣ .
* د. محمد عبد العزيز الكفراوى / الشعر العربى بين الجمود والتطور / دار نهضة مصر / القاهرة / ط ٢ .
* د. محمد عبد المنعم خفاجى / الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام / دار الكتاب اللبنانى / بيروت .
* د. محمود حسن أبو ناجى / شعراء العرب الفرسان فى الجاهلية وصدر الإسلام / مؤسسة علوم القرآن / دمشق وبيروت / ط ١ / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م .
* المرتضى / أمالى المرتضى / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / عيسى البابى الحلبى / ط ١ / ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م .
* المرزبانى - معجم الشعراء / تحقيق عبد الستار أحمد فراج / البابى الحلبى / القاهرة / ١٩٦٠م .
* المرزبانى / الموشح / تحقيق على محمد البجاوى / دار نهضة مصر / القاهرة / ١٩٦٥ م .
* معن بن أوس المزنى / ديوان معن بن أوس المزنى / صنعة د. نورى حمود القيسى وحاتم صالح الضامن / دار الجاحظ / بغداد / ط ١ / ١٩٧٧م .
* نابغة بنى شيبان / ديوان نابغة بنى شيبان / دار الكتب المصرية / ١٣٥١هـ - ١٩٣٢ م .

* النابغة الجعدى / ديوان النابغة الجعدى / تحقيق عبد العزيز رباح / المكتب الإسلامى / دمشق / ط ١ / ١٣٨٤م - ١٩٦٤ م .

* د. ناصر بن سعد الرشيد / سوق عكاظ فى الجاهلية والإسلام / دار الأنصار / القاهرة / ط ١ / ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

* النعمان بن بشير / شعر النعمان بن بشير / تحقيق د. يحيى الجبورى / مطبعة المعارف / بغداد .

* د. يحيى الجبورى / شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه / مؤسسة الرسالة / بيروت / ط ٢ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

* د. يوسف خليف / حياة الشعر فى الكوفة / دار الكتاب العربى / القاهرة / ١٩٦٨ م .

* Arabic Literature to the End of the Umayyad Period , Cambridge University Press , 1983 .

* Nicholson . A Literary History of the Arabs . Cambridge University Press , 1979 .

الفهرس

دار النهضة العربية
٣٢ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة